obeikandl.com

الضحيـة (رواية)

obeikandl.com

رابح خدوسي

الضحيـة

(رواية)

منشورات الحضـارة

2015

obeikandl.com

obeikandl.com

© منشورات الحضـارة

ص ب 04 (A) بئر التوتة -الجزائر 16045

هاتف/فاكس: 46. 70. 41. (021)

البريد الإلكتروني: kheddoucir@yahoo.com

ردمك: 9961-767-34-9

الأعناق تشرئبّ إلى المتحدّثين في شوق ولهفة، الآذان تستلذّ نكهة الحديث كل مساء في دكّان القرية الوحيد، حيث تلتقي النخبة التي يدّعي أفرادها الفهم والمعرفة بأمور الدّنيا وأحوال المستقبل، وكل واحد يحاول أن يكسب تأييد المصغين إليه، إلاّ محمود بن الشيخ يحيى الذي لم يكن من بين الصغار الذين يهمّهم الاستماع، بل كان يشمئز أي اشمئزاز من مبالغة الكبار في وصف الحوادث. كان همّه الوحيد هو الوصول إلى قمّة المجد، ، ، في السير على طريق المستقبل الذي سلكه سالم الذي يدرس بالثانوية في المدينة، كان شديد التأثّر به يقلّده في طريقة حديثه، وفي كيفية سيره وحالة هندامه، لما يمتاز به من دماثة الخلق وحسن السلوك وزاد في ذلك نجاحه وانتقاله للدراسة بالمدينة، كان محمود يتحين الفرص المناسبة للاقتراب منه

ولقائه، لكن خجله من الرجال الذين كانوا يقتربون من سالم ليزودهم بمختلف الأخبار أويوضح لهم بعض أمور الفقه الغامضة يعوقه عن ذلك.

التقيا ذات مرّة صدفة فاستعار محمود من سالم بعض الكتب والراريس لمطالعتها، ، ، راقه الخط الجميل والألوان الزاهية التي زادته تشويقا لمطالعتها حتى النهاية.

التقى سالم بمحمود مساء الخميس عند عودته من الدراسة وبادره بعد التحية قائلا:

- هل طالعت الكتب والكراريس كلها؟

أجاب محمود باحترام:

- نعم، وإني لك من الشاكرين.

قال سالم باعتزاز:

- لا شكر على واجب، ، فالعلم يجب أن يمنح مجانا كالماء والهواء..

قاطعه محمود سائلا:

- أريد أن أسألك عن شيء لم أعرف معناه، ، ،

- نعم، تفضّل في الأدب، في العلوم أومواد أخرى،

أنا في خدمتك (وهيأ سالم نفسه في سعلة خفيفة).

سرّ سالم لهذا الاستعداد قائلا:

- ما هو مدلول الصفصاف المو...؟

لم ينتظر سالم نهاية السؤال، حوّل بصره في حركة لاإرادية نحو الجهة الخلفية ومرّر يده على وجهه كأنه يمسح عرقا.

كان يكبره بعدّة أعوام طويل القامة نحيف الجسم تظهر على ذقنه بعض الشعيرات تتلاعب بها يد النسيم بينما كان محمود يبدو قصير القامة عريض المنكبين، صوته الغليظ ينشر الحروف نشرا.

احتار محمود لموقف سالم بعد السؤال وراح يوضح له من جديد:

- إني لم أقصد الصفصاف ونباته أوشجرة الصفصاف التي تنظر إليها الآن، ، ،

كانت شجرة الصفصاف من النعم التي يتمتع بها سكان القرية، دائمة الاخضرار ذات أغصان طويلة وعريضة تكسوها الأوراق الوافرة، ذات جذع كبير

يكتنف رسما لقلب واسع تتوسطه عبارة (تحيا الجزائر)، ، ومما زادها جمالا تربعها على عين جارية تسقي أغلب سكان القرية بمائها العذب وأضفى عليها امتناع الذكور من الشباب والرجال الاقتراب منها هيبة كبيرة، ، لقد كانت ملتقى الفتيات الحسان اللائي يملأن قربهن من مائها ويتبادلن ما طاب لهن وما لذّ من أنواع الحديث حول الأعراس المنتظرة وأغاني الموسم الجديدة، ، ،

سرح سالم بباله بعيدا في جولة مفتوحة ثم نظر إلى محمود قائلا في جفاء:

- ماهي الصفصافة التي تقصدها إذًا؟

أجاب محمود آسفا:

- الكلمة التي تكتب على كل صفحة من صفحات دفاترك.

أجاب سالم بسرعة:

- الصفصاف هو اسم الثانوية التي أدرس بها، هل هناك سؤال آخر؟

تظاهر محمود بالاقتناع قائلا:

- ... شكرا ، ، غدا سأحضر لك أمانتك، ، ،

وافتراقا....

- .....

من روائع الحياة التي وهبها الخالق لمخلوقاته الطبيعة بهوائها وسكونها اللذين يطفوان على حياة سكان الريف، ، ، وتتجلى فيها الصورة الرائعة للجمال، ، قد يسأم السامع من حديثهم اللاّمحدود المعاد أكثر الأوقات حول المواسم والمحاصيل الزراعية وأسعار الغلال في الأسواق، وقد تكون سذاجة التفكير عندهم نعمة أخرى، ، ،

باتت العائلة تفكر في غد والتويزة التي يقيمها الحاج لحصد ما زرع في فصل الخريف، ، ، وأقبل الصبح متمهلا، سأل محمود أباه:

- كيف تترك عملك وتقوم بأعماله؟!

أجاب الشيخ يحيى:

- المساعدة واجبة بيننا يا بني..

انفعل محمود وقام قائلا:

- لماذا لا نساعد أنفسنا أوالمحتاجين للمساعدة،

إن الحاج بوعلام في غنى عن مساعدتنا..

- ما زلت صغيرا يا بني... بينما كنت أظنك عالما ومجربا، ، ، خرجت الكلمات من بين شفاه الأب ممزوجة بالحسرة وعاد محمود إلى جلوسه موجها كلامه نحو أمه التي كانت منهمكة في حلب العنزة:

- هذا كلامه كلما رآني أوضح الحقائق يتهمني بالجاهل الصغير...

- في الحقيقة يا بني، ، إننا كلنا صغار أمام الحاج بوعلام وأعوانه، ،

قاطعها الشيخ يحيى قائلا:

- حدثيه يا حورية عن معمر الذي رفض الصيف الماضي الحصاد عند الحاج.

أخذ محمود فنجان القهوة وهو يقول:

- رجل شجاع، ، ، أكثر الله من أمثالك يا سي معمر، ، ، إنّه يستحق قهوة من مقهى الحا...

توقف محمود عن الكلام وانفجرت أسارير الشيخ يحيى عن قهقهة صدرت بعدها كلمات في جدٍّ حزين:

- أكمل.. قلها يا بني مقهى الحاج بوعلام، ، ، لاتخش أن أقول لك أنت أصغر من طفل، ، ، ثم اذهب واسأل معمر من أين يجلب المواد الغذائية وماذا يركب؟!

كانت يد محمود تضغط على جبينه كأنه أمام امتحان عويص، تهاطلت عليه الأسئلة في ازدحام لماذا لايركب معمر الشاحنة كغيره من الناس؟ لماذا لا يذهب إلى الدكان؟ ما وراء ذلك؟

انقبض جبينه ثم اتسعت عيناه في هدوء، بدا على محمود وكأنّه يستيقظ بعد حلم غريب وردّد هامسا:

- مقهى الحاج، ، دكان الحاج، ، شاحنة الحاج...

قامت الأم منصرفة نحو البهو وهي تقول لابنها:

كل القرية للحاج، حتى البيض قبل نزوله مرهون للحاج.

وضع الشيخ يحيى المنجل على كتفه والابتسامة تعلو محياه.

- اهتم بدراستك يا بني، إن ما حرثته أمس أحصده اليوم وما تزرعه أنت في صدرك سيضل طول الحياة مثمرا.

وخرج الشيخ يحيى مهرولا يريد اللحاق بالجماعات المتوجهة نحو السهل، تنهد محمود متأسفا وقام في الحين يحمل الكيس الصغير الذي يحفظ فيه أدواته وخرج قاصدا المدرسة في خطوات متباينة تطوي المسافة في تحدٍّ، شعر بحركة سارية بين الخمائل تتّبعه وكأنّها ترسم أثاره، وقف ناظرا خلفه تأمّل قليلا ثم سأل قائلا:

- ماذا تفعل هنا؟ لماذا جئت؟

لم تردّ عليه إلاّ نظرات غامضة مستضعفة، حاول محمود أن يهدّده بكلمات يعمّها الرفق أكثر من الغضب.

- هيا.. عد، ، عد يا "مورا" إلى المنزل.

أحسّ الكلب بالإهانة فبكت عيناه بغير دموع وقرأ محمود في نظراته علامات العتاب، فراح يداعبه بلطف ويمسح على رأسه:

- هل أنت جائع؟ أنسيت أن اسمك لقب جنرال؟ حسنا يا صديقي الجنرال، ، ،

أدخل محمود يده في الكيس وأخرج رغيفا من الخبز كانت أمه وضعته بداخله ليسدّ به رمقه أثناء الاستراحة

في المدرسة، ، رآه الكلب فالتمعت عيناه وكاد أن يختطفه من يد صاحبه، ، ،

سُرّ محمود وهو يرى كلبه "مورا" يفتت كسرة الشعير بين أضراسه ويولي عائدا صوب المنزل، ، ، هزّ رأسه في حيرة وتعجّب وواصل سبيله مردّدا:

"جوع كلبك يتبعك... جوع كلبك يتبعك".

دروب القرية ملتوية بين الحدائق والبيوت ذات المعالم الواضحة سارها محمود صامتا وعيناه مطرقتان إلى الأرض كأنه يبحث عن شيء ضائع، قد كسبه منذ الأزل، صادفته زمرة من زملائه التلاميذ، بادروه سائلين:

- إلى أين يا محمود؟

أدهشه اتجاههم وسؤالهم ورد عليهم:

- كما ترون، ، أولا صباح الخير، لكن هل نسيتم موقع المدرسة، وفي هذا اليوم بالذات، ، ، ما بك تفكر ياعزيز؟

نطق عزيز في حماس:

- صباح الخير يا محمود، ، ، هلا رافقتنا؟

- .....

- نحن ذاهبون إلى التويزة إلى مدرسة الحاج... "وتعاونوا على البر.".

قال محمود حائرا:

- لكن....!

قاطعه جهيد:

- العمل شرف وحق وواجب.

تساءل محمود:

ولكنكم صغار؟، ، ، ثم أنسيتم موعد الامتحان الأسبوع المقبل؟!

قال جهيد في غير اكتراث:

- كل حسب سنه، ، عزيز يجلب الماء ونحن نجمع الغمار وراء الحاصدين.

- والدراسة؟ والامتحان؟

أجاب عزيز:

- لماذا نمتحن والنتيجة معروفة.

- هل ضمن لكم بوعلام النجاح؟!

obeikandl.com

ضحك زملاؤه وقال جهيد في تأن:

- إنك آخر من يعلم يا محمود بأنه لانجاح لنا هذه السنة، ، ،

- لماذا، ، ،؟

- لقد أخبرنا بوزيد بن الحاج بأن مدير المدرسة قال له:

- ما دام التلاميذ لا يدرسون الفرنسية فمصيرهم الرسوب حتما، ، لقد تأخرنا، هيا يا جماعة، ،

سار جهيد ورفقاؤه قليلا ثم التفت نحو محمود قائلا في استهزاء:

- أرجو لك النجاح يا محمود...

❁ ❁ ❁ ❁

الشاحنة تسير ببطء، العجلات تتسلق طريقا ملتوية التواء الثعابين والمحرك يئن أنين الأشجار في ليالي الصقيع، الشمس تطبع قبلات الوداع على جبين كل راكب، ، كانت المدينة تبتعد شيئا فشيئا والشاحنة تعانق المرتفع في اتجاه القرية، ، ، وجوه الصغار تطل على مقدمة الشاحنة متلذّذة بهبوب الريح المعاكسة بينما كانت نظرات الشخص

المحترم ترصد حركات الصغار على الشاحنة، ، قال عزيز:

- لم يبق إلا القليل من السير ونشرف على قريتنا.

أخرج المعلم علبة السجائر من جيبه وبحث عن علبة الكبريت في جيب آخر فلم يعثر عليها، نظر حوله ثم أعاد السيجارة إلى العلبة، اقترب منه محمود سائلا:

- ما رأيك يا أستاذ هل الأمل موجود؟

وقف المعلم ثم انحنى على هامش مقدمة الشاحنة:

- يا بوزيد، ، ناولني علبة الكبريت.

جاءته علبة الكبريت يصاحبها صوت بوزيد آمرا:

- هيا يا أستاذ، ، ، كل واحد يحضّر خمسين دينار قبل الوصول، ، ، نظر التلاميذ فيما بينهم، أحسوا بأن أسئلة الامتحان التي قدّمت لهم في الصباح هذا اليوم أهون من هذه المشكلة، ، بوزيد هو الإبن الوحيد للحاج بوعلام يقيم في القرية أغلب الأحيان، عاش مدلّلا من أبيه الذي ورث عنه التعالي والكبرياء لم يبال محمود بطلب بوزيد واقترب من معلمه مرّة ثانية قائلا:

- كانت أسئلة الفرنسية صعبة لم أفهم منها شيئا ومع ذلك أجبت.

هز المعلم رأسه وواصل محمود كلامه في هدوء:

- لقد كتبت على ورقة الإجابة إني لم أدرس الفرنسية قط...

قاطعه جهيد قائلا في حيرة:

- لكن هل يمكنك الآن أن تقول لبوزيد: ليست لي نقود؟!

أخرج المعلم من رئته سحابة دخان قائلا في عزم وتحد:

اسمعوا يا طلاب، ، ، لو تفوزون في هذا الامتحان لأذبحنّ خروفين هديّة لسكان القرية ليعلم رئيس البلدية بأن في قريتنا مدرسة حققت نجاحا.

توقفت الشاحنة فجأة فقال جهيد:

- ربما تكون قد تعطلت وسنكمل المسافة مشيا، ، ،

قال المعلم مردّدا الآية القرآنية: "قل لن يصيبنا إلاّ ماكتب الله لنا"

نزل قويدر الذي كان يجلس بجانب السائق، صدرت عن التلاميذ كلمات مركبة في لحن غنائي:

- "قويدر متى تتزوج، ، قويدر متى تتزوج، ،

قويدر لاتتعوّج، ، قويدر.."

كان قويدر ذا قامة قزمية ولون عسلي، التجعّدات بدأت تغزو محياه رغم صغر سنه، فهو لم يتجاوز الثلاثين، جاءت به ظروف الحياة إلى القرية وعرفه سكّانها منذ سنوات عند الحاج بوعلام، يرعى المواشي ويكنس الدكان وفي بعض الأحيان يرافق بوزيد على الشاحنة إلى المدينة، ، ، كثيرا ما يسأله البعض عن أهله وأصله فيبكي بحرقة وتصاب أوصاله بالتشنّج وأصبح سكان القرية يتحاشون تذكيره بأهله ونسبه بل يمازحونه على سبيل التسلية فيسألونه "قويدر، ، متى تتزوج؟"

ضاعت كلمات قويدر في صخب الركاب ضياع حقيقة الحياة التي وجد فيها رغم صمت الكل على صوت انغلاق باب الشاحنة في شدّة، تقدّم بوزيد والشرر يتطاير من عينيه:

- هيا ادفعوا ثمن النقل؟

كانت جيوب أغلبهم شبه خاوية لم يبق منها تناول الغذاء عند اللبان سوى النزر القليل، أخرج بعض الراكبين من الرجال نقودا وقدموها لبوزيد الذي نظر إلى التلاميذ في

ازدراء ومدّ يده نحوهم قائلا في جنون:

هيا.. هيا بسرعة وإلاّ نزعت لكم سراويلكم.

قال محمود في صوت خافت:

- التنمر على الضعفاء دليل على الجبن.

- ماذا تقول؟! ماذا تقول؟! يا ابن...!

أجاب محمود في اضطراب:

مسافة الركوب لا تساوي ثمن النقل ولو كانت سيارة أجرة ما طلب صاحبها هذا الثمن.

قدحت شرارة الغضب والانتقام في عيني بوزيد من جديد واسترسل في كلامه مهدّدا متوعّدا:

- ماذا تقول يا ابن القزّانة؟ هل اشترت معي أمك؟ هيا انزل من شاحنتي.

قال محمود منفعلا:

- شاحنة (سوناكوم)

صعد بوزيد ظهر الشاحنة ومسك بذراع محمود:

- سوناكوم، ، سوناكوم انزل يا ابن، ، ، ، !

أوقفه المعلم وقدّم لبوزيد أوراقا نقدية وهو يقول:

- لا شيء أحق بطول السجن من اللسان، ، ، خذ مقابل نقل الجميع وأكمل المسير....

مسك بوزيد النقود وهو يصرّ على إنزال محمود، ، ، أقلعت الشاحنة عن مكانها في حين كان محمود ينزل غاضبا، حاول المعلم طالبا من بوزيد إيقاف الشاحنة، لكنه فشل في إقناعه، بل أطلق بوزيد العنان للشاحنة تسير في سرعة لا مثيل لها.

وواصل محمود السير على قدميه وعينيه تسبحان في أمواج من الدموع على وشك فيضها وذاكرته تسترجع سؤالا في الامتحان:

- هل كان هتلر يكره اليهود فعلا؟!....

- آه من الأيام، ، ، خرجنا مع الفجر نمشي سويا وها أنذا أعود للقرية وحيدا، كيف أقابل المعلم غدا وقد عرف أن أمي (قزّانة، ، ،)؟!

وقف محمود قليلا وأخرج من جيبه علبة صغيرة تحتوي على قطع من السكّر، تذكر وصية أمه وهي تودعه فجرا:

"يقولون أن السكر مفيد عند الامتحان فلا تنس تناول هذه القطع من السكّر، لقد وفّرته لهذا اليوم منذ اشتراه أبوك في العيد الماضي، ، لا تنسّ.

قال في نفسه:

- مسكينة أنت يا أماه ماذا تقولين لوتعلمين بأني نسيت وصيتك... وضع قطعة تحت لسانه فذابت وسط اللعاب، أحس بالحرارة تعمّ جسمه واستعذب طعم السكر فأكمل بقيته الواحدة تلو الأخرى والخطوة تلو الأخرى.

أشرف مع الأصيل على القرية، بدت له جميلة بأكواخها المتناثرة وأشجارها الباسقة التي تزيدها رونقا وبهاء، ، ، أحس محمود بالتّعب يستولي على ركبتيه والضمأ يغص في حلقه، ، ، تمهّل في سيره وهو يقترب من مدخل القرية، ، ، بلغ عين الماء الجارية تحت شجرة الصفصاف فانكب على صفحة الماء يعبّه في لهفة، رأى صورة وجهه المحتقن بالدماء تنعكس على صفحة الماء في رقصة صامتة، ، ، حمد الله واتكأ على جذع شجرة الصفصاف، مررّ يده على جبينه يمسح العرق المتصبّب، ، شعر بالرّاحة تسري في كيانه سريان العرق بين ملابسه، ، رفع رأسه

إلى السماء فوجد شجرة الصفصاف تمدّ أغصانها المياسة فتغطي وجه السماء وأبصر عش طائر بين الأغصان فدفعه الفضول إلى تسلق الشجرة، استوقفه منظر القرية البديع قبل أن يصل إلى العش نظر صوب البيت قائلا في نفسه:

- تلك دارنا الحبيبة، ، اشتقت إليها بعد فراق يوم واحد فقط وراح يردّد مقطعا غنائيا بين شفتيه:

"كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل"

هذه دار "علي الطويل" تركها ونزح إلى المدينة رغم الحديقة الجميلة وتلك دار حمدان التي يقال بأنه تركها مع ست بقرات للحاج بوعلام مقابل قطعة أرض بالمدينة وتلك أطلال بيت الشيخ حمزة الذي أحرقه الاستعمار.

جلس على غصن كبير وعيناه تمسحان أرجاء القرية، علته نشوة الوصول إلى القرية قبل نزول الظلام فردّد في صوت هادئ "عليك مني السلام يا أرض أجدادي" توقف عن الإنشاد وقال في نفسه:

- آه يا أحمد، ، لو تعلم كيف صار منزلك بعد هجرتك إلى فرنسا، لقد أصبح شبيها بكوخ البكوشة...

أحس بمرارة الندم السريع على ما ذكر وقال في نفسه:

- كيف أسميها البكوشة وابنها سالم يعيرني الكتب وربما سأرافقه إلى المدينة في المستقبل للتعلم في ثانوية الصفصاف.

فكّر مليّا وسرح بتفكيره إلى أقصى بعد، رأى نفسه طالبا في الثانوية، ثم في الجامعة يختال في سرور بين الطلبة والطالبات و... و... و، ، ، انتبه إلى حاله على صوت خافت انساب إلى مسامعه من بين الأغصان، ألقى ببصره أسفل الشجرة تمعن جيّدا فهاله ما رأى، لم يصدق عينيه:

- شاب وفتاة في ربيع حياتهما يجتمعان حول عين الماء، من يكونان وكيف أقدم هذا الشاب على هذا اللقاء في مكان مخصص للحريم؟!.

حدّث نفسه كثيرا وهو يتفرّس وجهيهما، ، كبت ضحكة وقال:

- هل أنا في حلم، سالم مع صفية بنت بلقاسم بوعكاز.. كيف التقيا؟!

- لا.. لا يمكن للمرء أن يحبّ ويظلّ عاقلا.

سكن محمود في مكانه يصغي إلى الحديث الذي كان يصله عبر الفروع المستمدة من جذع الشجرة كأسلاك الهاتف، سالم يقابل صفية في الجلوس ويسند ظهره إلى جذع الصفصافة ويده تخط التراب بعود حطب، بينما كانت صفية تملأ قربة الماء وعيناها تمسحان المكان في نظرة دائرية، ، ،

أوصال محمود تهتزّ خوف اكتشافه كلّما حرّك سالم رأسه نحو الأعلى، لكن عيني سالم تقفان أثناء صعودهما فجأة لتستقرا على أهداب ناعسة تحرس عينين سوداوين يسري إخفاقهما إلى الشفتين فترتعشان في ضياع فلا يجرؤ سالم على تحويل بصره إلى مكان آخر....

- لقد تعلّمت من عينيك الكثير..

(تزيح صفية خصلة من شعرها الذي يحاكي الليل في دجاه وتبعدها عن خدها الوردي في صمت)

- وتعلمت منك فن الحياة، ، ، هل تعلمين يا صفيتي بأني أرى الله من خلال عينيك.

تقول صفية في صوت رقيق مبحوح:

- حكمة الله في خلقه.

- سهامها تخترق قلبي في غمرة تلاشي وجداني.

مرّت لحظات صمت استراحت خلالها الأحبال الصوتية وتحدّثت العيون في مناجاة سحرية تهتف مهجتها بالأمل والتقت الأنامل في تسابيح تروي في رعشتها قصة الروح السابحة في فضاء الحب المنبعث من الجسدين المحمومين بحرارة الشباب، ،

وتنطلق صفية في استرخاء:

- ألم تكل عيناك من الإبحار يا سالم؟

- وهل يثمل الضمآن من الشهد؟

وتبعد صفية يديها قائلة:

- خائفة... إني خائفة يا سالم، ، ،

سألها سالم في استغراب:

- خائفة من أي شيء؟

- من الأقدار، ، أخشى أن تبتلى الذكريات بنار الفراق فتصير رمادا تزدريه الرياح.

قاطعها مهدئا:

- سنكتب العقد ونقرأ الفاتحة قريبا يا صفية، ، ،

ردّت عليه في دلال مغرٍ:

- هل تريد شرائي؟! ألم يكفك قلبي؟!

- إن العش الذي يجمعنا، سيكون أسعد عش تراه الشمس، ، ،

رفعت صفية جبينها نحو السماء في طرب ولسانها يقول:

- إن شاء الله... إن شاء....

ارتبكت وخفضت رأسها في سرعة قائلة في اضطراب:

- إلى اللقاء.... إلى... اللقاء.

حملت قربة الماء شبه فارغة وانطلقت ذاهبة، ذهل سالم لذهابها المفاجئ ورفع رأسه إلى السماء يبحث عن السر، حيث كان محمود يمسح بمنديله العرق المتصبّب من جبينه.

❁ ❁ ❁ ❁

هدأت العاصفة وجنّ الليل فسكن مرابع القرية، استلهم أبو القاسم من رائحة أوراق الأشجار الندية استجابة

الدعاء، كان يجلس القرفصاء يسند ظهره إلى شجرة اللوز اليابسة ذات الحجارة المكدّسة في أسفلها التي تزداد مع مرور الأيام، وضع بلقاسم بوعكاز حجرة جديدة فوق أخواتها ككل زائر لضريح "سيدي رحمون" وأشعل شمعتين كان قد أحضرهما معه من الدكان، قبّل أحجار الضريح الواحدة تلو الأخرى وبدأ يناجيها هامسا:

- يا سيدي رحمون، ، نحن مسلمون، ، يا سيدي إني راحل إلى أرض قريبة من البحر فزودني برضاك واكسب زوجتي عزيزة الصحة وارزق ابنتنا صفية ابن الحلال، ، ، واسمح لي بأخذ حجرة من أحجارك الكريمة تبركا بها فقد أوصاني بذلك الحاج بوعلام الذي سيسكنني عنده بالمدينة، ، سأصبح مثله غنيا وأبسط يدي على الريف والمدينة، ، اسمح لي يا سيدي، ،

ابتعد بلقاسم بوعكاز عن الضريح وقلبه يفيض سرورا واطمئنانا، ، ولم تشأ نجمة صباح الغد أن تلمع في كنف القبة الزرقاء مبشرة بيوم جديد حتى كان بوعكاز وزوجته وابنتهما صفية يغادرون بلدتهم على متن الشاحنة، جلس بوعكاز مع الأثاث في خلف عربة السياقة، أما صفية وأمها

فقد حشرهما الكرسي الجلدي مع السائق.

سارت الشاحنة في طريقها ذات المنعرجات الوعرة والإلتواءات الكثيرة، كانت أطراف بوزيد تلمس ضاغطة على الجانب الأيسر من جسم صفية، التي لم تجد متسعا للابتعاد عنه وأمها البدينة تحتل القسم الأكبر من المكان مما سمح للسائق بوزيد في كثير من المرّات تعمّد الانضمام إليها.

تنفست صفية الصعداء عند الوصول ونزلت توجه نظرات ازدراء نحو بوزيد الذي كان يمسح جسدها بعينيه النهمتين.

الواقع مثير، أحدثه الفرق الكبير في مستوى الحياة، عائلة بوعكاز تقف أمام منزل كبير لا مثيل له في بلدتهم الصغيرة، الطوابق تطلّ خلف السور الأزرق المحيط بالمنزل وحديقته.

فتح موحوش الباب الكبيرة عن آخرها فأدخل بوزيد الشاحنة المرآب، ، ، ودخل الجميع، تعالت كلمات الترحيب من الداخل:

- أهلا، ، ، مرحبا، ،

كان الحاج بوعلام في ثياب النوم يرفل في عباءة واسعة واضعا على رأسه عمامة صفراء طويلة محكمة الدوران حول رأسه كنوم الثعابين، ، ،

سلّم على الجميع مستفسرا عن الرحلة وحالة أهل الريف ثم دلهم على الغرفة التي أعدّها لهم، ، ، وخاطبهم قائلا:

- هذا بيتكم الجديد، ، ، كل شيء أمامكم، ، ، الماء والكهرباء، ، ، انظروا:

وضع إصبعه على زر الكهرباء فكسا نورها الغرفة مبدّدا ظلامها، ابتسم بوعكاز وسأل الحاج مستفسرا:

- وهل الدكان قريب من هنا؟

ضحك الحاج مختلسا نظرة لصفية ثم قال:

- لا تقلق، فإن الدنيا كلها دكاكين..

تدخل بوزيد قائلا:

- الدنيا نفسها دكان هذا تبيعه المال والآخر السعادة وذاك الجمال (وينظر صوب صفية التي تخفض رأسها في حياء، ثم يردف قائلا):

والبعض الآخر الأخلاق التي لا تليق بأبناء السادة.

وضع الحاج بوعلام يده مربّتا على كتف بوعكاز:

- إن الدكان ملاصق لسور المنزل فلا تخش شيئا حتى ولو لم تكن لديك نقود.

- حمدا لله... شكرا لك يا سيدي رحمون، ، إن بركتك رافقتني حتى في غربتي فالحاج هنا وهناك، ، زاده الله دكاكين في كل بقاع العالم.

ذلك ما قاله بلقاسم بوعكاز في غاية الفرحة ثم بدا عليه أنه تذكر شيئا فاستدرك قائلا:

- أريد أن أتعرف على قطعة الأرض التي وعدتني بها، ،

ردّ عليه الحاج بوعلام ويده تفتل شاربه:

- إن أرضي هي أرضك، ، نحن شركاء في أرض الريف وأرض المدينة (ثم قال في استهزاء):

ألم تسمع بالاشتراكية، ها، ، ، ها، ، ، (في ضحك)؟!

- بلى... إني سمعت عنها كثيرا وخاصة أيام الثورة على لسان المجاهدين، ثم إننا لم نشرب القهوة، ،

- نعم، ، نعم اجلسوا، ، تعال يا بوزيد لتحضر

لهم القهوة (ثم استدرك قائلا):

- لا ، ، لا تتعب نفسك فإن موحوش موجود...

بقي بوعكاز وزوجته وابنته في انتظار فطور الصباح بينما خرج الحاج وابنه يتشاوران في همس.

وقفت صفية عند نافذة الغرفة تطلّ إلى الخارج، راقها منظر الحديقة بورودها وأشجارها التي تحيط بمنزل الحاج، ، أبصرت في الطابق الأول زوجة الحاج تترقب الحاج وبوزيد وهما يتحدثان أمام حوض الماء، ،

كانت زوجته في الأربعين من العمر تملك مسحة من الشباب الذي غادرها دون استئذان، ، ، طيبة المعاملة، شديدة التمسك بحقوقها، لا تعرف المستحيل ولا تؤمن بالانهزام تطارد الزمن وتنازع زيارة ضيف ثقيل، كان يعودها بعض المرات ويترك في كل مرّة شعرة بيضاء في رأسها، أحبّ أنيس لها مرآتها الواسعة، تجالسها الأوقات الكثيرة تحدّثها بلغة الأمل، تريد الانتقام من الزمن الضائع من عمرها الذي قضته بعيدا عن الحياة الثرية ورغد العيش فيها قرب الحاج بوعلام الذي نشر في سمائها رداء الاطمئنان وراحة البال، فرضيت بأيامها معه رغم التباين السني بينهما، ، ارتدت

أزهى الفساتين وأغلى الحلي فأضحت كطفل صغير في حقل زاهر تزركشه ألوان لا نهاية لها ، ، أنستها السهرات الحمراء والجولات إلى الخارج العشرين سنة التي يكبرها بها الحاج بوعلام.

اعترفت لنفسها مرارا بأنّها سرّت بزواجها من رجل غني أرمل، جرّب الحياة الزوجية بخصائصها يعطي الوقت والمكان حق قدرهما ، لقد أهدت الطبيعة (جوهرة) زوجة الحاج قوة الحدس وخرق الذكاء وبفطرة المرأة العجيبة التي يمكن أن تستطيع حكم العالم عند تغلبها على داء الغيرة، ، كان إحساس غريب ينام في أعماقها ويستيقظ في خاطرها كلما أرخى الليل سدوله، وبدأ الشرود يبسط نفوذه على تفكيرها بعد أن تأكدت أن سنة الحياة حرمتها من أمل كل امرأة، خشيت أن تتلاشى أحلامها فعزمت على تحقيق رغبتها وأن تسدد سهمها نحو الهدف مباشرة وفي الوقت المناسب، ،

وقد كان بوعلام لا يحقق مطالبها إلا إذا كان على الفراش مريضا أومعافى، ،

- النزهة منبع الإنعاش وراحة البال ومصدر استمداد قوة الحس بنعيم الحياة.

قال ذلك الحاج عند عودته من زيارة الحمّام المعدني، ، ، لم يهتم بانفعال زوجته جوهرة، التي كانت على السيارة بجانبه ترصد نظراته المتراقصة بين الطريق والمرآة الداخلية العاكسة للمشهد الخلفي، حيث كانت تجلس صفية، ،

هزّت جوهرة رأسها في غضب وآثرت الصمت الذي رأت فيه صفية فرصة للإعجاب بنفسها واكتسبت من نظراته تأييدا يشهد لجمالها أمام جوهرة، ، ، شدّ انتباهه جمال صفية الفاتن وراقه توريد وجنتيها كشقائق النعمان فالتفت إليها سائلا:

- أظن أن الحمام قد طلب النجدة من البحر، ،؟

ابتسمت صفية في زهو غرير، ، وأجابته جوهرة في غير اكتراث:

- إن للنساء في الحمام شؤونا، ، ،

تعمّد زوجها بوعلام روح المداعبة معها محاولا تبديد ريبها:

- لا تنسي يا جوهرة أن أروبا التي تنوين السفر

إليها ليس بها حمامات من هذا الطراز.

أجابته في نفور:

- اهتم بالسياقة وانظر أمامك، إننا في مدخل المدينة، ثم لا تنس بأن زياراتي لفرنسا ليست الأولى من نوعها، ،

❁ ❁ ❁ ❁

حل مساء ذلك اليوم فتزينت جوهرة بكل ما تملك من أدوات التجميل، بدا وجهها كلوحة فنية تشع منها الألوان في ازدحام، ، كأنها الموناليزا الجديدة للرسام "ليوناردو دافنشي"، ، ، وانتقت من الثياب ما زاد ثمنه عن ثياب العرائس فلبست ما يبدي زينتها مسخرة كل مفاتن الأنوثة الناضجة للوقت المناسب وللمعركة الحاسمة، ، ،

جلس زوجها على حافة السرير يخفي استغرابا قائلا في نفسه:

- ليلة بعد عقد من الليالي وليست ككل الليالي، ، ، ما هذا؟

تقدّمت منه جوهرة في هدوء وهمست في أذنه قاطعة حبل تفكيره:

- ما رأيك في هذا اللباس؟

انتبه إلى سؤالها فاستردّ انتباهه قائلا في غير اهتمام:

- أقل من سنك بكثير...

أحست بأن الخطوة الأولى تكاد تخسر الرهان فجرّت لسانها إلى موضوع آخر وهي تجلس إلى جانبه:

- وما رأيك في المرأة؟

نظر إليها بعينين تترددّان على مواقع كثيرة من جسمها المكسو بغلالة شفافة من الحرير فكرّرت السؤال مرّة ثانية في دلال، ، ، ورد عليها مبتسما:

- يقول الفلاسفة "المرأة شيطان جميل"

مسكت يده قائلة:

- وما رأيك في أنا بالذات؟

ووضع يده على منكبيها في هدوء قائلا:

- طفلة سنها أكبر من عقلها.

رأت حمى الضعف تشتعل في عينيه، هدأت من أعصابها وقرّرت هزمه بسلاحه قبل انتهاء المعركة، ، ابتعدت عنه

قليلا وحدثته بكلمات جادة:

- يا عزيزي، ، إنك تعلم مدى مودتي لك طوال السنين الماضية، أحس بأنفاسها تسري في أعماقه التي تحركت في انفعال فقال:

- قولي ماذا تريدين؟

لاحظت حالته فأرادت أن تفوز بوعد منه، فقالت في سذاجة مفتعلة:

- أخاف أن تخيّب ظني.

- .....

- إن كنت تحبني وتقدرني حقا، ، خصّص لي جزءا من أملاكك باسمي، ،

احتوت عنقه بيديها المذهبتين في حين كان يفكر في طلبها المفاجئ وقال في نفسه:

- إن تعطي العبد كراعا يطلب ذراعا.

ثم قال في صوت مسموع:

- ألستِ زوجتي وأملاكي أملاكك؟

ردّت عليه في توسل:

- لكني أريد الاطمئنان على مستقبلي، ، على بقية حياتي.

- لا تخشي شيئا، إن مستقبلنا مشترك، فلا يمكن لأحدنا أن يحيا بعيدا عن الآخر، ، ،

ابتعدت عنه شيئا فشيئا وانكبت على الفراش ودموع الخيبة تهمي من مآقيها، اقترب منها محاولا تهدئتها، وضع يده على وجهها المدفون بين الوسادتين، ، أبعدت يده والشهيق يخنق أنفاسها، سحب يده، أحس بمادة لزجة تسري بين أصابعه، كانت خيوط متناثرة من اللوحة الفنية أذابت الدموع الساخنة رسومها، ، ، شعر بالاختناق فهفا نحو النافذة يفتحها على مصراعيها يستنشق الهواء، سكن بجسمه على النافذة المطلة على الحديقة، وفيما كان تفكيره يسبح في بحر عميق من الهواجس، ، وصلت أسماعه سعلة مكبوتة من نافذة غرفة بوعكاز، حيث كانت صفية تناجي الليل في دجاه.

اشتغل بلقاسم بوعكاز منذ نزوله بالمدينة يفلح حديقة الحاج بوعلام في سقي الأشجار وزرع الأزهار والاعتناء بقسم الخضر بما يكفي بيته وعائلة الحاج مقابل مساعدة الحاج له بالمواد الغذائية الضرورية، كان مبلغ النقود الذي وفّره قبل رحيله إلى المدينة بدأ يتقلص من يوم إلى آخر، ، ، واهتمّت صفية بمساعدة جوهرة زوجة الحاج في تحضير المأكولات وتنظيف الغرف، ، ، اشتدّ عودها وغنى لها جمالها أنشودة الحياة في ظل هدايا الحاج المتنوعة ونظراته الباسمة، التي كانت تتبعها دون أن تدري، قاتلها الشوق الملتهب للقاء سالم، فتردّدت على شرفة الطابق الثاني كثيرا لتسافر ببصرها في كل ، تبحث عن مكان لا تريد النطق باسمه، ، طيف سالم يحوم حولها أغلب الأحيان عندما تداهمها أحلام اليقظة فتجالسه الأوقات وتحدّثه عن خوالج نفسها الجياشة بالعواطف النبيلة الممزوجة بأسمى معاني الوفاء:

- كيف حالك، ، وكيف تراني بعد الفراق الذي لم أكن راضية عنه، ، أين أنت؟ وفيما تفكر؟ سلام عليك ياشجرة الصفصاف.

كانت تحدّق ببصرها كلما وقفت في الشرفة تبحث عن سالم بين المارة، تبحث عن الماضي، ، ،

دق جرس أول يوم من السنة الدراسية فلبّته قوافل الطلبة وذكريات العطلة تنسج في مخيلاتهم قصصا بطولية يستعدون لسردها على مسامع زملائهم، ، ،

احتضن باب الثانوية الواسع أفواج الطلبة فعجّت الساحة بهم في لحظات قصيرة وامتد قطارهم إلى المدرجات والطوابق يبحثون عن أسمائهم في أبواب الأقسام، ،

النداءات تنتشر في سماء الساحة، حيث يرحب كلّ صديق بصديقه، كان سالم ينتقل من زميل لآخر مسلّما في شرود، حتى اختراق أذنيه صوت يعرف صاحبه:

- سالم... أنت هنا يا سلام،

التفت سالم في تأن، أحس بالإعصار وعيناه تلتقيان بعيني محمود الذي مدّ يده مصافحا في ابتسام:

- أظنك مخطئا يا سالم... إن هذه ثانوية الراشدية وليست ثانوية الصفصاف.

لم يوضح له سالم استفساره وسحب يده ببرودة، شعر محمود بحاله فسأله في جد:

- هل تشكو ألما؟

ردّ سالم في فتور:

- لا... الحمد لله

قال محمود ويده تمسك بذراع سالم:

- هل تعاني مشكلة؟

احتقنت الدماء في وجنتي سالم واضطربت حركة يديه وقال غاضبا:

- آه... يد تشنج وأخرى منك تأسوني.... أغرب عن بصري أيها الجاسوس، إن حضورك سوء.. لو رأتك الشمس في مطلعها لأصابها الكسوف.

بهت محمود من كلام سالم الذي طعن به في أول لقاء بعد مدّة، حاول استفساره عن السبب لكن سالم ابتعد في نفور، فمكث محمود في مكانه لا يدري ماذا يفعل أو يقول وقد تذكّر يوم جلوسه على غصن شجرة الصفصاف ثم اكتشافه لعلاقة سالم بصفية، ضغط على شفته

السفلى بأنامله ثم قال:

- لقد عرفت الآن سر كلمة الصفصاف المدونة في كراريس سالم وكتبه.

❁ ❁ ❁ ❁

شرعت بكوشة أم سالم بتغير حالة ابنها الذي كان يبدو حزينا مهموما، قرأت في جبينه آيات الألم والحسرة، لم تبال كثيرا بالأمر وحدّثت نفسها وهي تحمل حزمة الحطب في الغابة: "إنها حالة كل الذين يشقون طريق العلم".

وضعت حزمت الحطب على الأرض وجلست تفكر قائلة لنفسها في صمت:

- "بعد سنة سيتزوج ابني الوحيد (نظرت إلى السماء) وسألبس الجديد وأرقص فارحة ومثل كل النساء عند دخول العروس بيتها أطلق زغرودة الفرحة الكبرى..."

رفعت بكوشة رأسها إلى السماء من جديد وكأنها أصيبت بوخز حربة... انهمرت الدموع من عينيها لما تذكرت أنها لا تستطيع إطلاق زغرودة الفرحة الكبرى، لأنها حرمت

من معجزة النطق لما كبّل البكم أحبالها الصوتية فخرس لسانها عن الكلام وهي في عز الشباب.. أطلقت لتفكيرها العنان، للاحتراق في رماد الذكريات الجائرة تلذذت بمرارة الذكريات التي عادت بحواسها ومخيلتها إلى الماضي البعيد واستعادت صورا كثيرة بكت لها بحرقة.

في الوقت نفسه كان ابنها سالم محاصرا بشهيق دامع داخل القسم الذي قهقه طلابه عندما سمعوا النداء:

- سالم بن بكوشة.

أعاد كاتب الإدارة الاسم وفي يده بطاقة تجديد الإقامة بالنظام الداخلي.. ثم قال:

- أتخجل يا سالم من ذكر اسم أمك الحقيقي..

انكبّ سالم بجذعه على الطاولة في صمت حزين، مرّت لحظات والأنظار متّجهة صوبه رفع رأسه محملقا بعينيه في وجوههم.. ثم نطق والغضب يعلو محياه:

- إنها الأقدار التي سمتها بكوشة.. بكوشة.. بكوشة.

هوى سالم من جديد على الطاولة، تأسف الكاتب لحالته فخاطبه مهدئا:

- لكن ليس من شيمتك الغضب، ثم أن هذا الاسم مسجّل في أوراق الحالة المدنية.. هيا كفى حسرة... ابتسم واضحك.

وقف سالم بدموعه المتناثرة على ذقنه، أخرج منديلا أزرقا وجفّف به دمعه قائلا في حسرة شديدة:

- أضحك.. أضحك لأني عاجز عن معرفة اسم أمي الحقيقي، وقد لبثت في رحمها مدّة من الزمن ونهلت من صدرها كوثرا عذبا وتعلّمت في حضنها أسمى معاني العطف والحنان، عشرون ربيعا أحياها مع أمي وأنا أجهل جوهرة روحها، قد يكون أجمل اسم في الدنيا:

سامية، زهراء، فاطمة، عائشة... وقد يكون اسم آخر من أسماء الحياة ولكن ليس بكوشة لا. لا. مستحيل.. مستحيل أيها الضاحكون.

❁ ❁ ❁ ❁

حان ميعاد سفر جوهرة إلى الخارج فقام زوجها يساعدها في حمل الحقيبة ويرافقها بسيارته إلى المطار،

سألته مستفسرة:

- ولماذا هذا الرجل راكب معنا؟!

أجابها هامسا ويديه تضغطان على عجلة القيادة:

- جئت به خصيصا لحمل الحقيبتين من السيارة إلى قاعة الانتظار بالمطار، هل يروقك أن نحملها نحن؟!

هزّت رأسها صامتة على مضض وأدار الحاج مفتاح المحرك الذي غنى موال الانطلاق...

حانت لحظة الوداع داخل المطار، أشارت بيدها ملوحة:

- باي..باي.... إلى اللقاء

- رحلة سعيدة يا عزيزتي..

عادت مقتربة منه وقالت في مكر:

- بقاء أسعد... فرصة ثمينة، أليس كذلك؟!

انتبه إلى قصدها فقال مبتسما:

- يا لك من داهية... هيا مع السلامة.

- .....

حلّقت الطائرة في الجو مخترقة السحاب وسارت السيارة عائدة، الحيرة تطغى على تفكير بوعكاز، سأل نفسه:

- أحقيقة أن الحاج بوعلام يترك زوجته تسافر وحدها إلى بلاد الكفار؟

تردّد كثيرا في محاولة استفسار الحاج عن هذا الأمر الذي أثقل باله..

- إنها الحرية يا سي بلقاسم، إن المرأة تخدمنا طول العمر ومن واجبنا أن نهيئ لها أسباب السعادة ولو شهرا في السنة.

انتشل هذا التصريح بلقاسم بوعكاز من أفكاره المحيّرة فسأل في دهشة:

- لكن.. ألا توجد السعادة إلا في البعد عن دار الزوجية.. وشهرا؟!

قهقه الحاج بوعلام وقال مستهزئا:

- إنك من الطراز المتخلف حقا... ليكن في علمك أن القلوب إذا تقاربت لا يهمّها ابتعاد الأجسام.

لم يدرك بوعكاز من كلام الحاج سوى كلمة المتخلف

وسأل في سذاجة:

- هل يكفي المبلغ المسموح به للسفر تسديد مصاريف شهر كامل؟

أخفي الحاج ضغينة شملت فؤاده وقال في توضيح متصنع:

- ألم أقل لك بأنك متخلف... إن زوجتي من السيدات المحترمات في الخارج قد تحصل على المال في أي وقت تشاء زد على ذلك أنها تقيم في منزلنا هناك.. هل استرحت الآن؟! صمت بوعكاز مستسلما لنفسه نادما على مناقشة الحاج في مثل هذه الأمور التي تذكره بواقعه المتخلف... وقال في نفسه متحسرا:

- سلام على المتخلفين الذين لا يعرفون معنى الكلام..

وصلت بهما السيارة إلى المنزل قبل الظهيرة، نزل الاثنان وما كاد بوعكاز يبتعد عنها حتى استوقفه الحاج وهو يخرج من جيبه أوراقا مالية لمعت لرؤيتها عينا بوعكاز وقدّم يده نحوها في عفوية.

قدّمها له آمرا في صرامة:

- اسمع يا بلقاسم... نحن على أبواب موسم الحصاد

وأني أرى من الواجب أن تشرف بنفسك على حملة الحصاد، وهذه النقود على سبيل المساعدة الناجمة عن الثقة التي أضعها فيك.

تأمل بوعكاز النقود ثم وضعها في جيب سرواله فأحس بانتفاخه لحينه فانطلقت كلماته تعبر عن مشاعر الامتنان والشكر:

- سيتم كل شيء على أحسن ما يرام.. أتوجه غدا مع العائلة إلى الريف.

سرّ الحاج بوعلام ورأى أن الحديد يُقوّم منصهرا فمسك بيد بوعكاز السمراء قائلا:

- لي رجاء عندك يا بلقاسم...

قاطعه بلقاسم:

- مقبول، مقبول يا سي....

- هل تعاهدني على قبوله...

- نعم، أعاهدك وهل يردّ لك طلب يا سيد الرجال؟

تكلم الحاج في لهجة راجية:

- إن بقائي وحيدا في المنزل يسبّب لي تعبا في تحضير

الأكل وأنت تعرف حالة الكبار، لذلك أرجو أن تبقي صفية هنا إلى أن تعود زوجتي.

صمت بوعكاز لا يدري ماذا يقول....؟ كانت قبضة الحاج تشتدّ على يده وجيبه يتحرك دراهما، أراد أن يقول شيئا، أن يعتذر لكن يد الحاج كانت أسرع من لسانه، حيث أضافت على مضض، فابتسم بوعلام الحاج بسمة الانتصار، وقال في نفسه:

- الدراهم مراهم... افتح جيبك ينقفل عيبك.

... وأشرقت شمس اليوم المقبل وبوعكاز وزوجته يعدّان انعراجات المرتفع تجاه الريف، في حين كان الحاج يسوق السيارة ويبدي إعجابه بالريف ومناظره الخلابة....

۞ ۞ ۞ ۞

أغلب أيام السنة الدراسية انقضت ولم يبق غير أسبوعين على الامتحانات الأخيرة ونهاية السنة، لم يجتمع سالم بمحمود إلاّ بنظرات عن بعد تجمع العتاب من الطرفين خاصة من محمود الذي كان لا يبخل بنظراته التي تحمل التعاطف والميل إلى مساعدة سالم، الذي بدأ يركن

إلى الوحدة والانعزال بعيدا عن زملائه وأصدقائه الأقربين، لايهتم بأي شيء مهما كانت قيمته، ينظر إلى الأشخاص دون تركيز كمن ينظر في البحر وقد أخذ منه شيئا غاليا، لاحظ الأساتذة انخفاض مستواه الدراسي على غير عادته فحاولوا استفساره على انفراد.

- يا سالم.. إن هذه السنة لم يسعدها نشاطك وحيويتك؟!

ينظر سالم إلى أستاذه في بلاهة ثم يجيبه:

- فاقد الشيء لا يعطيه... إنك علّمتنا هذا يا أستاذ.

- لكن أين روح التفاؤل الطامحة التي عهدناك عليها؟!

أطرق سالم برأسه وأجاب في كلمات بطيئة:

- تختفي الروح عندما تنتهي الحياة.. وروحي ذبلت عندما غابت عني شمس الحياة...

قال أحد الأساتذة:

- لا أشك أن "سالم" متيّم فؤاده بـ... فالحب والعطر لايختبئان، وأضاف أستاذ العلوم بعد أستاذ الأدب العربي قائلا:

- أوالحب كالزكام لا يمكن إخفاؤه، فهلاّ أخبرتنا بصاحبة الحظ يا سالم؟!

ردّ سالم مبتسما:

- ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف.

- المؤمن لا يقنط من رحمة الله يا سالم وأظنك تعرف هذا (ثم أردف الأستاذ ممازحا) وهذه اللحية الظريفة تدل على ذلك.

وعلى أنك زعيم الإخوان المسلمين في هذه المدينة....

- فسّرها كما شئت... فلا لزوم للسمك في بركة بلا ماء...

قالها سالم في غاية من الأسى واستسلم لتفكير طويل لا يعلم مداه إلاّ الله، لم يشعر بابتعاد الأساتذة عنه ومكوثه وحيدا طوال ساعة كاملة، بسط المساء برودته الخفيفة على كاهله فقام يجرّ قدميه نحو المرقد.

تمدّد في فراشه يطلب الكرى، لكن باله لم يستقل عن أفكاره المضنية فهجره النعاس واعتراه أرق ثقيل، تقلّب على الفراش مرّات ومرّات تقلّب الإعصار الذي كان يجتاح

أعماقه ويزلزل كيانه...

جلس على الفراش مصوبا نظره حوله، لم ير سوى الظلام يحرسه وأنفاس زملائه وشخير بعضهم يدخل في نفسه الأنس ويبدّد بعض وحشته وهو في الهزيع الأخير من الليل، انحدرت من عينيه دمعتان مزقتا بحرارتهما فتور وجنتيه فارتجفت أوصاله، بدأ يحدّث نفسه في حسرة المتيم الولهان الذي طعنته الأقدار:

- تبا لهذه الحياة، تبا للأقدار التي حرمتني من رؤية والدي وأبكمت أمي فأصمت أذناي عن أحلى نغم تنطق به أعز الشفاه.. وكنت أظنك أيتها الأقدار غافلة عن.. صفية... آه... أين أنت وكيف ألقاك؟!

شعر بالبرودة تسري على بشرة جلده يصاحبها صداع خفيف فتمدّد على فراشه والكرى يداعب قافلة أهدابه المبلّلة بعبرات أبت التبخر والجفاف...

أقبلت أيام الصيف الطويلة وحرارتها الشديدة، فتمايلت سنابل القمح والشعير المصفرة على أنغام مدائح الفلاحين

في الحقول وأنغام الصراصير... استقام أحد الحاصدين واقفا وهو يقول لبلقاسم بوعكاز:

- لكننا سئمنا هذه الحياة ياعمي بلقاسم:

كان ظهر بوعكاز منحنيا في تقوس المنجل بيده عندما ردّ عليه:

- المدينة صعبة يا جهيد، كل شيء يباع فيها بالثمن وحتى الهواء ربما يأتي يوم نراه في سوقها.

- وهل يباع الإنسان؟!

وقف عثمان ويداه تربط غمار السنابل وقال في استهزاء:

- يا له من سؤال تافه... (ثم أردف متعجبا):

- يا أخي لقد بيع الإنسان في الريف قبل المدينة (وانفعل قائلا في اضطراب):

- تأمل حالتك وحالتي ألسنا بضاعة.. آلات مريحة في يد الحاج خريفا وصيفا..

قاطعه جهيد مهدئا:

- الله غالب يا أخي..

تدخل بوعكاز:

- هيا يا جماعة... العمل... العمل

وارتفع صوته في مديح ديني طويل سرعان ما قلّدته أصوات الفلاحين الآخرين، وردّدت المرتفعات والوهاد صدى الأصوات المادحة فترنحت الأشجار مبتهجة بأنغام عهدتها منذ أجيال، إلاّ شجرة الصفصاف التي كان يجالسها سالم كل مساء وقت اشتغال النسوة بتحضير العشاء في بيوتهن.. يستعيد مع أفيائها ذكرياته بصفية، حاول كثيرا تحدي جدار نفسه المسيج بأشواك الألم والتعاسة، ومقاومة إعصار اليأس القاهر، لكن الفشل أبى فراقه فاستسلم للانهيار وغرق في بحيرة العذاب وحرقة القنوط وسط طوفان من الهواجس، فبدأ الأمل يجفّ في روحه جفاف الماء في مقاصر الأشجار المحروقة، يحاول الوقوف على رجل واحدة فيختل توازنه وينهار من جديد، ، اعتاد سالم على ارتياد الشجرة ومناجاة ماء العين الذي لا ينضب تدفقه، ، ،

"أيها الماء الزلال، ، ، لقد جعل الله منك كل شيء حيا، فأحيي عهدي بأميرة الحسان وكن لي رسولا إلى وجدانها في كل جرعة وصغ من دموعي مطرا يفيض على جبينها

فيسقي روحها شذى طيبا"

❁ ❁ ❁ ❁

أهداب صفية مطبقة على بعضها في إغفاءة، انتزعتها من يقظتها المسافة الطويلة وأنين السيارة التي كانت تتسلق طريق القرية، ، ،

استيقظت من غفوتها على سريان يد تمر على شعرها الأسود المنسدل على كتفيها، ، فتحت عيناها قليلا وابتسمت في دلال قائلة:

- أين نحن؟ هل وصلنا؟

انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة وأجابها في رفق:

- هل نسيت قريتك... أنظري ها قد وصلنا، ، ،

قفزت ببصرها إلى كل أرجاء القرية... علت محياها آيات الزهو فقالت للحاج بوعلام:

- تلك دارنا... أنظر الألبسة المنشورة على السور.

واصلت مسح القرية بعينيها الساحرتين فوقع بصرها فجأة على شجرة الصفصاف كانت تبدو لها من بعيد

وكأنها تلوح بأغصانها تستعجلها في القدوم لمواصلة الطريق المقطوع منذ زمان، ، ،

- شجرة الصفصاف لازالت في...

ذابت الكلمات على شفتيها وتغيرت ملامحها وخفضت رأسها الدائري على صدرها المكتنز تنظر إلى قدميها في أسى، بينما أوقف بوعلام الحاج السيارة في مدخل القرية وبدأ يفكر في أشياء كثيرة، ، ،

كان حقله يعج بالفلاحين لم يعرهم أي اهتمام واكتفى بنظرة خاطفة عدّ خلالها مجموع الحاصدين، لمح دموعا تقطر من مآقي صفية ذات القلب المنفطر، ، ،

أدهشه منظر الدموع ثم ربت على كتفها قائلا:

- أتبكين؟ يا لها من دموع، ، ، ما أهون دموع الفرح، ، دموع اللقاء بعد الفراق.

(تمدّدت على الأريكة وأغرقها الشهيق في استرخاء تام فتأكد بوعلام الحاج أن وراء هذه الدموع سرّ وراح يهدئ من روعها محاولا معرفة السبب):

- لماذا تبكين وعهدي بك أنك شجاعة؟

- هل أصابك الحنين إلى المدينة وقدماك لم تطأ أرض الريف، ، ، أنسيت بأنك أنت التي اقترحت هذه الرحلة، ، ،

أشارت عليه صفية بالعودة قائلة:

- أرجوك أن تعود من حيث أتينا.

تحاشى استفسارها وأدر المحرك في حين انحنت برأسها إلى الأمام واضعة جبينها على راحة يدها اليسرى واستسلمت للأفكار، ، انحرف الحاج بوعلام بسيارته في اتجاه عين الماء، أوقف السيارة أمام شجرة الصفصاف وقال لها مدللا:

- صفا.. هيا انزلي واغسلي وجنتيك وابعدي عنهما الدموع السوداء، زاغت نظراتها بين أغصان الشجرة متذكرة آخر يوم جمعها بسالم، ، ، ، ،

فتح لها الباب وحثها على النزول:

- من أجل خاطري، ، ، لأجلي، ، ، اغسلي الألم، ، ، إن جمالك لم يخلق للحزن، ترجلت صفية نحو عين الماء التي أحست بأنها تعاتبها:

(أين عهدك الذي قطعتِه على نفسكِ في هذا المكان)؟

لمست الماء بأناملها فأحست برعشة كبرى تسري في أوصالها، وفجأة اهتزت مشاعرها عند سماع صوت يناديها في لهفة وشوق أجابه الفؤاد في نشوة.

- صفية.. حبيبتي هنا؟!

ظهر سالم متقدما من خلف الشجرة وعيناه تكذبان المشهد.. وقف قبالتها متأملا:

- سالم؟... هل أنا في حلم... رباه...

أجهدت نفسها في المحافظة على توازنها، ناجت العيون بعضها وامتزجت نظراتهما مخترقة الأيام.. لم يشعرا بالوقت والمكان.. أغلق الحاج بوعلام باب سيارته في قوة شديدة، اقترب منهما وهو يتوعد:

- ماذا تفعل هنا يا ابن البكوشة؟! ألا تعرف من أنا...؟!

لم تعد رجلاها تطيق حملها في لحظات الضياع، فانزوت تريد الاتكاء... مدّ سالم يده ماسكا بذراعها، حال الحاج بوعلام بينهما في اقتحام واحتضن صفية دافعا بيده اليمنى "سالم" بعيدا مهدّدا متوعدا:

- ستنال جزاءك.. أيها اللقيط.

وأخذ صفية التي لم تعد تعي ما يقع حولها وركبا السيارة التي انطلقت بهما، بينما كان بعض الأطفال يتطلعون إلى سالم في صمت.. كانت السيارة تتجه نحو المدينة وحالة اللاوعي تعتري من عليها...

❁ ❁ ❁ ❁

خيّم الصمت هذا المساء على رواد الدكان وقلّت حركاتهم، سرت رائحة العنب المتعفن في مناخرهم، النور الضئيل يشعّ من المصباح الزيتي المعلق على الجدار، دخانه يمتزج بدخان السجائر فيتشكّل على مرّ السنين خيوطا سوداء تتدلّى من السقف.

افترشت أنامل بوزيد مجموعة من الأوراق النقدية استعدادا لعدّها قبل مغادرة الدكان، القلوب تخفق لخفقانها بين أصابعه والعيون تتطلّع إليها في إحصاء صامت وغارت النقود في جيب بوزيد فبلعت الوجوه ماءها...

أسرف بوزيد في الضحك، ووجوه الحاضرين واجمة، بعض الأفواه تصنعت الابتسام مجاملة، قال لهم بوزيد:

- أتحزنون لأجل حمار مات، ومئات الأشخاص تموت

في فلسطين كل يوم والعرب صامتون.

افترسته النظرات الجافة التي ركن أصحابها إلى الصمت المرّ الذي لم يخضع له الشيخ يحيى فمزّق لباس الصمت قائلا:

- إنهم الأولاد الثمانية الذين يموتون جوعا ، ، بعد أن مات حمارهم.

قاطعه بوزيد متهكّما:

- لقد أخطأ حارس الغابة عندما دفع الحمار إلى الهاوية وكان الأحرى به أن ينتقم من صاحبه معمر، ، ، ويجعله طعاما للغربان..

- إنّه عمل الجبناء قساة القلوب.

وغادر الشيخ يحيى الدكان دون وداع، ،

۞ ۞ ۞ ۞

نجح محمود في كسب ثقة سالم من جديد بعد أن صار ه نعم المعين في الشدائد وألطف الناس معه خاصة في أزمات إغمائه، فذابت تلك الضغينة التي كان يحملها فؤاد سالم

وقصّ عليه ما يؤرق مضجعه ويثير شجونه، ، ، ،

التقيا بعد أيام من حادثة حارس الغابة مع معمر فبادره محمود بقوله:

- ها قد جمعتنا أيّام العسرة بعد أن فرقتنا أيام الرخاء..

(ثم أردف قائلا بعد صمت قصير):

- معمر فقد حماره وهو راجع من المدينة... لقد دفعه حارس الغابة إلى الواد بكل ما يحمل، هل علمت؟

سأله سالم في دهشة:

- هل كان الحمار محمّلا بالفحم؟!

- بل كان يحمل الدقيق والزيت، تدحرج كل شيء إلى أعماق الواد، تدحرج الدموع من مآقي أطفال معمر، إنها مأساة الإنسانية وفضيحتها أن يطل عليها القرن الجديد والعالم يعود إلى الجاهلية الأولى...

قال سالم متنهدا:

- مسكين أنت يا معمر، خسرت رأس مالك وربحت حرارة الصيف ونار الفحم!

وأردف محمود:

- كانتا أهون من حرارة دموعه، ولكن يبقى معمر رافضا الخماسة عند الحاج ورافضا رعي الغنم عند حارس الغابة، ، قال سالم:

- إنّه ثائر يا محمود...

- وثورته الرفض في صمت.. رفض العبودية المتحضرة.

جلس سالم على صخرة مستديرة تسمى صخرة الراية، السكون يخيّم على القرية والبدر يرسل ضوءه مبتسما، يطارد دجى الليل في خجل، حدثه ما جرى له الأسبوع الماضي في عين الصفصافة مع الحاج وصفية، كانت كلماته جراحا تسيل ألما، الآهات تسبقها وتتلوها، قلبه الجريح ينفطر همّا، أشفق محمود وخشي أن يتعرض رفيقه سالم إلى أزمة جديدة ففير الموضوع بطريقته الخاصة:

- هل تعلم يا سالم ماذا حدث في هذا المكان؟

- .....

- أحداث كثيرة غالبته فلم تغلبه (استوى محمود جالسا) وأردف قائلا:

- أقصد ذلك الصباح من أيام الثورة الذي خفق فيه العلم الوطني محيّيا سكان القرية بينما كانت راية الاستعمار تنام على الأرض ملطّخة بالوحل... قصة واقعية يعيدها أبي في كل مناسبة... تقلّصت رئتاه بإخراجه زفيرا ممتدّا تمدّد الحسرة بين ضلوعه وقاطع محمود قائلا:

- إنه استعمار قديم، أخذ درسا من أبطالنا، ، ، إن مايشغلني الآن هو الاستغلال الجديد ذو الجذور القديمة... استغلال الأعزاء:... الأرض... أبيك... صفية... أفكارنا أيضا تعاني من الغزو الذي حرج من الحقول ولم يخرج من العقول...

قاطعه محمود:

- إنها فكرة.

- .....؟!

- لا يكون لك حق الدفاع عن صفية إلا إذا خطبتها من أهلها، وبالتالي تنقذها من شر الطاغية.

ابتسم سالم قليلا واتسعت شفتاه شاكرا الفؤاد على استراحته التي ظن بها منذ مدّة.. وزاغت نظراته مبدّدة سحر

الابتسامة التي ضاعت أثناء إبحاره في تأملات بعيدة.. تأمل وجه القمر المبتسم.. وحدّث نفسه:

- "خطوبة... زواج... دراسة.... خدمة وطنية..!"

ربّت محمود على منكبه سائلا:

- ما رأيك يا صديقي؟

- فكرة سابقة لأوانها، لكنها مقبولة.

- إنها مشروع وحدة باركتها السماء...

- لقد ذكرتني يا محمود متى تفرض السماء وحدة المسلمين؟

- يوم الحشر...

وقف محمود معاهدا سالم:

- سترافق أمي أمك إلى دار أهلها، ، ، وأبى أول من يطمئنك بموافقة أبيها، إن شاء الله.

- إن شاء الله...

obeikandl.com

- أغدق عليها من الهدايا ما لا يحصى، ، ، وأغرقها في واقع لا تراه في الأحلام، أوتسمعه من قصص ألف ليلة وليلة، ، ، رفعت الكلفة بينهما حتى صارت لا تهاب أن تطلب منه طهي الطعام أومسح النوافذ معلّلة ذلك بانشغالها في الحمام أوفي تسريح شعرها...

كان بوعلام الحاج يشعر بمتعة كبرى أثناء القيام بهذه الأعمال التي كانت شروط اللعبة التي يقومان بها تكلّفه ذلك...

تجاهل اللعبة وبدا على صفية حماس شديد لتعليمه، تخيّلت نفسها أستاذة عظيمة تلقي درسا أمام طالب مبتدئ، شرعت في شرح قواعد اللعبة، وكانت القاعدة الأولى الجلوس، ، جلست على البساط في وضع تربيع الأرجل بحيث يندس قدم الرجل اليمنى أسفل ركبة الرجل اليسرى، ، ، وتابعت وصفها اللعبة، الوسائل: 5 قريدات من الحصى، المكان: الأرض، راحة الكف، خلف الكف، ، ، ...شرحت قواعد اللعبة في بلاهة، سألته مرات عديدة:

- أفهمت؟

يجيبها كل مرة ونظراته تستران الجزء المكشوف من ركبتيها، ، ،

- نعم.. واصلي، واصلي، ،

علته الغبطة وقال محدثا نفسه:

- "خلا لك الجو فبيضي وصفّري".

بدأ اللعب في هدوء وانتهى بنشوة انتصارها وكان من نصيبه.

- غسل الأواني وتعديل فراش السريرين، ، ،

أحس بنشوة الفوز وانتظرت قدوم اليوم الثاني للعب من جديد..

❁ ❁ ❁ ❁

بدأ اللعب في اليوم ا لثاني بحماس شديد واقترح الحاج بوعلام أن تكون مكافأة الفائز الغطس في الحمام بينما يقوم المنهزم بمساعدته في الغسل، ، ، ،

احتقن وجهها بالدماء خجلا ولم توافق، ، ، ،

أخبرها بأن هناك في انتظارها لباسين جديدين وأردف

قائلا في جد مرح:

- إنها نظافة وتسلية، ، ، فضلا عن اللباس، ، ، ،

هزت أكتافها في غير اكتراث للعواقب، وبعد برهة قالت في ابتسام:

- لكن بشرط أن يكون الماء فاترا

تعمّد البلادة في اللعب ومنحها فرص التفوق في سذاجة، ودخلا غرفة الحمام في سذاجة... فنسيا قواعد اللعبة...

۞ ۞ ۞ ۞

انقضى الشهر الأول من فصل الصيف مع نهاية السنابل من الحقول، الحبوب مكدّسة في البيادر، القرية تشهد هذا الصباح الاحتفال بيوم خزن الحبوب الذي يباركه الحاج بوعلام بحضوره، ، بزغ نور الشمس والجمع الكبير من الفلاحين على حافة البيدر الكبير عيونهم متجهة إلى مدخل القرية تنتظر قدوم الحاج في هذا الصباح، ، الأكياس الفارغة تصحبهم والعيون الجائعة تكشف ما يخفونه...

بلقاسم بوعكاز ينتقل من مكان إلى آخر في حماس

شديد، قرأ في ملامحهم أشياء لم يستطع تفسيرها، ، ، وخاطبهم:

- كلما زدتم في احترامه، زاد كم الحبوب أكثر، ، الصمت يطبق على الجميع، كل واحد يفكّر في كيفية استقبال الحاج بوعلام، ، ،

- الحرارة مزّقت جلودنا، والحاج لم يصل بعد...

ردّ بوعكاز على الشيخ يحيى:

- أن للغائب حجة محفوظة، ، ، ألا تستطيع الانتظار ساعتين وقد انتظرت سنة؟

❁ ❁ ❁ ❁

وقف الجميع بغتة في حركة لا إرادية وقال البعض:

- ها قد وصل، ، ، الحاج.

بدأت النظرات تراقب السيارة وهي تطوي الشارع الكبير الذي يتوسط القرية اتجاه الحقل، ، ،

نظر الكل صوب سليمان الذي قال متعجبا:

- انظروا... إن سيارة الحاج أعرض من بيتي،

الله يبارك، ، آه.... متى يرزقني الله بسيارة "مازدا" مثل الحاج...

- لم يصغ إليه أحد، تعلّقت الأسماع بمحرك السيارة وهو يزمجر في شدّة عند الاقتراب منهم، ، ، دقّت القلوب في عنف البيضاء، ، حياه بوعكاز مع الجماعة:

- يومك مبارك، ، ، يا حاج.

هزّ رأسه يردّ التحية في كلمات غير واضحة، ،

قال الشيخ يحيى في نفسه:

- لقد بخل علنا بالسلام وكأنه يكلّفه مالا، ، ،

أقبل عليه الجميع يسلّمون، ، أبعد خديه عن المقبلين تاركا كتفيه تتزحزحان تحت شفاه الفلاحين الذين لم يشعروا بنفوره منهم عند شمه رائحة دخان نار الحطب، ، كان أغلبهم يماثله في السن، ، سألوه في براءة الأطفال عن صحته وأحواله، ، حوّل بصره عنهم وخاطب بوعكاز ويداه تفركان عينيه محاولا طرد آثار السهر عن أجفانه التي بدت ذابلة:

- فسّر لهم يا بوعكاز معنى: المصافحة أفضل من المعانقة... أعقبه بوعكاز: "صدق الله العظيم".

تدخل عثمان قائلا:

- إن ما قاله الحاج ليس قرآنا يا بوعكاز

وقف أمامه بوعكاز قائلا في غضب وانفعال:

- أيها الحقير هل تعرف أنت القرآن أحسن من سيدك الحاج؟!

- سيدنا الله ونحن عباده، ، ،

قال ذلك الشيخ يحيى وهو ينظر ببلاهة صوب الحاج الذي كان يجتاز عتبة البيدر إلى مكان الحبوب المتجمعة دون أن ينزع حذاءه، فتح البعض أفواههم متسائلين:

- (كيف يجرؤ الحاج بوعلام على دوس النعمة المفروشة بحذائه).

- قال عثمان هامسا في أذن سليمان وملامحه تشمئز من تصرف الحاج:

- في أعماق المتعالي يكمن الفشل.

وجّه الحاج بوعلام كلامه نحو بوعكاز وقد لاحظ نظرات الاحتقار في عيون الفلاحين:

- أين بقية الإنتاج؟

وقف بوعكاز إلى جانبه متوسلا:

- لا تؤاخذهم يا سي الحاج... هذه حياة الفلاحين، ، تجمعهم سنبلة وتفرقهم كلمة.

قال الحاج في ازدراء:

- بل يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ، ، هل كان الموسم خصبا؟

- الحمد لله، أكثر من السنين الماضية. وقد جمعنا الحبوب في ثلاثة بيادر هنا كما ترى (وأشار بيده إلى أكياس كثيرة تنام فوق بعضها).

والبقية في البيدر الثاني هناك وفي البيدر الثالث جمعنا مالم يسعنا تصفيته من حبوب وعظام التبن، كما نسميها نحن: الكرفة.

وصل إليهم بوزيد في ذلك الوقت قادما بشاحنة لحمل الحبوب قال الحاج:

- أن بوزيد يتكفل بنقل ما يوجد هنا من حبوب إلى المنزل، ، أما ما يوجد في البيدر الثاني (تعلقت حواسهم بشفتيه وكادت أن تتوقف نبضات قلوبهم وهم يسمعون بقية

أوامره) من حبوب يقسم بالتساوي على إثنين حصة لكم أنتم والحصة الثانية لشيخ البلدية وحارس الغابة.

ثم أشار نحو بوعكاز مضيفا:

- زدهم (الكرفة) الموجودة في البيدر الثالث إلى الحصة الأولى، توجّه نحو سيارته التي انطلقت به عائدة إلى المدينة في سرعة الريح، ، لم ينتظر سليمان والشيخ يحيى غياب السيارة عن الأنظار، توجها مسرعين صوب البيدر المجاور ثم التحق بهما بقية الفلاحين يحملون الأكياس، ، ، بينما بقي بوزيد وبوعكاز ينظرون نحوهم في ريب خشية القضاء على كل ما يوجد في البيدر الثاني من حبوب، ، ،

❁ ❁ ❁ ❁

عاشت القرية أيامها الصيفية بعيدة عن ضوضاء المدن الذي تتغذى منها الحياة الصاخبة واستسلمت أرجاء القرية لهدوء عوّد الفلاحين على السكون في استراحة بعد عناء. وعاد سالم إلى الدراسة في عامه الأخير بالثانوية، ، خرج بلقاسم بوعكاز من بيته قاصدا المدينة وفي نيته تحضير عودته إلى المدينة أوإحضار صفية لقضاء أيام العيد المقبل

مع العائلة في الريف.

وقف مع الناس في ساحة العلم ينتظرون الشاحنة التي تقلّهم إلى المدينة، ، كانت زمرة المنتظرين في عدد أصابع اليدين.. جمعتهم مدّة الانتظار في أحاديث شتى، الوقت يمرّ وبوزيد لم ينهض من فراشه بعد، ، ،

قال أحدهم يا عمي بلقاسم..... ألا تذهب لتوقظه؟

ردّ عليه بوعكاز في ابتسامة منقبضة:

- لا نجد أشطر منك للقيام بهذا العمل يا عمران، ، إنه سي بوزيد وما أدراك ما...

هز سليمان رأسه في نظرة ازدراء نحو بوعكاز.. لم يستطع قهر انفعاله فنطق:

- هل علّمته أنت يا بوعكاز، هذا الذي تناديه سي، سي بوزيد...

- لا.. لا.. (لقد قرأ الكثير في جامع.. وبدا على بوعكاز عدم تذكر الجامع...)

أنقذه عمران من تعثر الحروف في مخارج حلقه:

- نعم، نعم يا سليمان لقد تعلّم في حديقة الحيوانات،

قهقه الجميع عدا بوعكاز الذي تغيّرت ملامح وجهه غاضبة وضغطت يده على عصاه كأنه يريد فعل شيء يضمره في أعماقه....

وأردف عمران مهدئا الوضع:

- حقيقة لقد قرأ بوزيد، لكن علمه لم ينفع به الناس وحتى نفسه، ، هل رأيته يا عمي بلقاسم يقرأ القرآن في جنازة...؟! هل يؤم المسجد يوم الجمعة؟! استيقظ يا عمي بلقاسم إن بوزيد بن الحاج ليس من طينتنا ولا يستحق دفاعك عنه...

قاطعه بوعكاز:

- إن دفاعي عن الحق... عن الحق، ، ،

زمجر محرك الشاحنة مبدّدا سكون القرية، فصمت الجميع، اقتربت الشاحنة منهم، هيأ كلّ واحد نفسه مستعدا للركوب بأمتعته، اتسع جبين بوعكاز بشرى وهو يقول:

- ها قد وصل.. إن كنتم رجالا حقا فلا تعلوا مركبته، ، وإلاّ.. وإلاّ..

وضاعت كلماته وسط دوي الشاحنة وغبار الطريق

الـذي افـترش وجـوههم، مـرّت الـشاحنة دون توقـف، رمـتهم بـدائها وانـسلت خاليـة إلا مـن الـسائق وقويـدر الـذي يبـدي ابتهاجا لفعل بوزيد.

تـأفف الجماعـة وانطلقـوا سـائرين علـى أرجلـهم بـلا كلام، ، ، إلاّ عمران الذي كان يردّد في موّال حزين:

- على الرجلين... القطار 11... القطار 11...

❁ ❁ ❁ ❁

طـرق بلقاسـم بوعكـاز البـاب، ، الـصمت يـسود المنـزل والحديقـة، ، ضـاعف بوعكـاز مـن طرقـه المتواصل فوصلت أسماعه استجابة من الداخل، قال في نفسه:

- الحاج، إنه صاحب الرأي السديد، ، ، لا أوافق على زواج صفية من سالم إلاّ إذا رضي الحاج بذلك.....

.... انسلخ بجسده عنها متأففا وهو يقول:

- من هذا الحيوان، ، ، لماذا لا يستعمل الجرس؟!

ارتـدى عباءتـه البيـضـاء وتعمـم بطربوشـه الأحمـر وقبـل خروجه من الغرفة نظر صوب صفية قائلا:

- انتظري سأعود بعد قليل، ، ،

كانت شبه عارية، ، الغلالة الشفافة ترقص على النصف الأعلى من جسدها البض، ،

مرت بيدها على بطنها الناعم وخصرها النحيف، ، ، كانت أنوثتها صارخة بمفاتنها الطاغية، ، ، دق الجرس في الغرفة دقات متتالية عدّة مرات، ، ، أدخل الريبة في نفسها وشعرت بخوف شديد فقامت من الفراش في سرعة وارتدت ملابسها الخارجية ثم اتجهت نحو الشرفة المطلة على الباب، ، ، جمد الدّم في عروقها وارتبكت حركات يديها.. ارتبك الحاج أمام بوعكاز، ، الذي كان يسأل عن الأحوال.

- لا بأس، ، لا بأس، كيف هي القرية ياسي بلقاسم؟

- لا بأس والحمد لله ولو أني اليوم غاضب...

عاد للحاج بوعلام ارتباكه من جديد، خشي أن يكون بوعكاز عرف شيئا من الحقيقة، ، ، وبدا عليه عدم الفهم:

- .....

- إن ابنك بوزيد لم ينقلنا في الشاحنة كالعادة...

عاوده الارتياح ونزلت السكينة قلبه...

سأله بوعكاز مرّة ثانية:

- كيف حالك... هل عادت السيدة من بلاد الكفار بخير؟

اهتزّ كيانه من جديد واحتقن الدم في أوصاله وفكر قليلا ثم قال:

- نعم، ، ، نعم، ، ، لقد عادت منذ أسبوعين وهي الآن في السوق، ، ، سوق الفلاح تشتري البطاطا، ، ،

كان بوعكاز والحاج قد توسطا الغرفة عندما خرجت صفية من غرفة داخلية:

- صفية... ابنتي.... ابنتي...

طبعت قبلة على جبينه، ، استنشقت منه رائحة دخان نار الحطب الممزوجة برائحة روث الدواب، ، ، تذكرت البادية وأمها وجارتها، ، ، تذكرت الحياة البريئة الساذجة التي يعيشها سكان القرية، ركزت عينيها في أرض الغرفة.

- مالك شاحبة الوجه، هل كنت مريضة يا بنيتي؟!

أطرقت واجمة والدموع تفيض في عينيها، ضمها إلى صدره في حنان:

- ما بك يابنيتي، ، ،

تدخل الحاج بوعلام وقد أحس بخطورة الموقف:

- قولي له يا صفية، ، قولي ما بك، ، ، قولي: لقد اشتقت لرؤيتكم، ، لماذا أبطأت في الرجوع أو قولي أنا طفلة صغيرة أحب النوم في حضن أمي.

انصرفت صفية دون أن تنبس شفتاها بكلمة، جلست في الغرفة المجاورة تصغي لحديثهما، ، اقترب الحاج من بوعكاز وجلسا على أريكة واحدة، ، ، قال الحاج لبوعكاز:

- لقد عزمت على شيء، ، ، هل تريد معرفته؟

- .....

- عزمت على تزويج صفية للشاب اليتيم موحوش، فما رأيك؟

نزلت الكلمات على مسامع صفية كالصاعقة فهتفت وهي تدخل عليهما الغرفة أبي، ، ، أبي، ، ،

قام بوعكاز وأجلسها على الأريكة قائلا في استغراب: ماذا!. ماذا؟!

ردّدت نداءها وهي تنظر في ازدراء إلى الحاج بوعلام:

- أبي، ، ، أبي، ، ،

رجلاه تدّبان أرض الغرفة والحرج يعمّه وهو يقول:

- أخبرها عن أمّها يا بلقاسم، ، إنّها خائفة من هلاكها،

- بخير يا بنتي، ، ، سترينها بعد ساعات قليلة، ، إن شاء الله.

- كلّ ما في الأمر أنّها حلمت ليلة البارحة حلما مزعجا، ، ، إنّه حلم فقط ياصفية، ، ها هو أبوك بخير وإن أمك بخير.

- لأجل هذا تبكين يا بنيتي، ، ، يالك من ساذجة، ، ، هيا اذهبي احضري لنا فنجان قهوة، ، ،

أرسلت نظرات حزينة المعنى، عميقة الحسرة، شعرت بإثمها الكبير من النظرة الأولى في وجه أبيها، أدركت بأنها قتلته في حياته مرتين، ، ،

قالت في نفسها:

- "يا لك من مسكين، تتهمني بالسذاجة والغباء وأنت الذي علمتني إياهما، يا لك من راع غبي يهش للذئب

الذي افترس خروفه".

حوّلت أنظارها الذابلة عن أبيها لتلقي بها على الحاج بوعلام الذي كان يخفي وراء شفتيه ابتسامة خبيثة، ، التقت عيونهما وخاطبت بعضها رغم كل شيء، كانت عيونه تعترف بالخيانة، ضغطت على الأرض بأصابع رجليها محاولة تكبيل لسانها الذي أراد النطق بأفكارها الصامتة. كانت عيناها تقول:

- "أيها الخائن الحقير.. أتريد تزويجي لخادمك، ، ، بعد أن سلبتني أغلى ما تملك الفتاة، ألم تعدني بالزواج؟! لماذا تحطّم أمالي... لماذا تخدعني؟!"

- انطبقت أهداب صفية على دمعتين لم تترك لهما مناصا للنزوح، ، ، أخفت دموعها عن نظر بوعلام الحاج، وغادرت الغرفة في سرعة مدهشة..

جلس بوعلام الحاج وبوعكاز جنب بعضهما، ، بدا على بوعكاز التفكير في أمر، حاول بوعلام إبعاده عن الاهتمام بأمر صفية..:

- أنسيت يا بلقاسم حياتنا في الصغر، ، ، شيء بسيط

يبكينا ومثله يضحكنا ، هي حالة الشباب...

التفت بوعكاز نحوه مبتسما يريد مبادلته الحديث دون كلفة:

- لكن يا سي الحاج أنتم في الماضي لم تكونوا تجالسوننا أوتلاعبوننا ، فأبناء "القياد" مثلكم بقدر ما يبتعدون عنا نحن أبناء الفلاحين يزدادون قربا من أبناء المعمرين...

سأله بوعلام الحاج في غبطة:

- والآن كيف ترانا يا سي بلقاسم؟!

وضع بلقاسم يده على ركبة الحاج قائلا:

- ماذا أقول؟ لقد هداكم الله رغم الداء والأعداء...

ختم كلامه بقهقهة أتبعها الحاج بمثلها ، امتدت رجلاه في استرخاء وأسند رأسه إلى الأريكة الجلدية وقال وهو يتأمل الثريا المعلقة في السقف:

- ماذا تقول في موحوش؟

- .....

- لكن ليست لي به علاقة تعارف، فمن هو؟

استقام بوعلام في جلسته ومسك بوعكاز من يده:

- أنسيته أم تحاول نسيانه؟!..... ذلك الشاب الذي ساعدك الخريف الماضي في تقليم الأشجار.

قال بوعكاز بعد تذكره:

- نعم. نعم تذكرته موحوش، ، ، أليس خادمك في إسطبل البقرات؟!

- هو عينه، ، ، أترى فيه عيبا يمنع مصاهرته؟

تذكرّ بلقاسم الشاب موحوش والحديث الذي جرى بينهما الخريف الماضي:

(كان يعتلي شجرة والمقص في يده، بعث إليه ابتسامة عبر الأغصان).

- يا عم... هل تعرف "المعلم" منذ القديم، ، ، ؟

- منذ مدّة يا بني، ، ، وأنت؟ وما اسمك؟

- اسمي محمد وينادونني موحوش، أعمل في إسطبل البقرات منذ أن مات أبي داخله.

اقترب بلقاسم بوعكاز من الشجرة التي تحمل موحوش، انقبضت تجاعيد جبينه مشكلة سلاسل

هقارية عابسة وسأل:

- من هو صاحب هذا الإسطبل؟

نزل موحوش من فوق الشجرة وهو يقول:

- إنه إسطبل المعلم بوعلام صاحبنا، ، ، يبدو أنك لاتعرف شيئا عن ممتلكاته، ، وأظنك لا تعرف أبي أيضا؟

هز بوعكاز رأسه نافيا.. تعجّب الشاب بوعلام وقال متأسفا:

- لقد غابت عنك أشياء كثيرة يا عم، والأحرى بك أن تعرف الناس، وتختار الرفيق قبل الطريق، ،

- .....

- أقصد أخبار صاحب المعمل قبل العمل..

اتكأ بوعكاز إلى شجرة المشمش وهو يقول:

- لقد حيّرتمونا يا هذا الجيل...

مدّ يده نحو رأس بوعكاز مبعدا عنه حشرة سوداء علقت بشعره...

- نعم يا عم... إن جيلنا محيّر حقًّا، لأنه نفسه محتار، لأنه وجد الاستقلال يستقبله...

قال بوعكاز في ابتهاج:

- لتستقبلوه بالعمل بتشييد الوطن وحمد الله.

- نعم، ، ، لكن المشاكل واجهتنا، فما العمل؟ لقد طرد الآباء الاستعمار بجحيمه لكن أذناب الاستعمار تعوق مسيرتنا...

قاطعه بوعكاز:

- هل تدرس يا موحوش؟

- أي دراسة، ، ، لقد علّمتني مدرسة الحياة في سنين قليلة مالم أتعلمه في المدرسة أوالثانوية في سنين كثيرة...

- إذن أنت ما زلت تزاول الدراسة؟

نظر إليه موحوش، ، ، نظرات مليئة بالحسرة والألم ونطق والحزن يسبق كلامه:

- لا... لا.. لقد ماتت أمي بعد نجاحي في الشهادة الابتدائية، ، وبعدها تزوّج أبي خالتي لأجل رعايتي، لتكون خير خلف لخير سلف، ،

استعجله بوعكاز:

- هل وجدت فرقا بينهما؟

- كالفرق بين الثرى والثريا ، ، لقد أذاقتني من القسوة والألم ما يضارع العطف والحنان الذين منحتهما لي أمي، ، ، وكانت العناية الإلهية حكيمة عندما حرمتها من الأمومة، ، كانت عاقرا ، ، وأبي المسكين، ، لقد عانى من معاملتها السيئة ما لا يعانيه أحد في حياته الزوجية ولو مع غانية، ، آه.. كانت تهينه أمام عيني، ، وتضاعف من شقائه في كل فرصة، ، هل تعلم بأنّها كانت تلومه في فقره كل مساء...

بدا على بوعكاز الاشمئزاز وراح يقول:

- هذه ليست زوجة... ليست امرأة... هي...

أوقفه موحوش بيده قائلا:

- لا تقل شيئا يا عم... إنك تحت سلطة زوجها... وقد تنتقم منك إن علمت بكلامك عنها ، ، ،

ظهر على بوعكاز عدم استيعاب المعلومات وحيّرته الألغاز الغامضة:

انتشله موحوش من حيرته بقوله:

- هي... جوهرة... زوجة الحاج بوعلام.

لم يصدّق كلام موحوش، واجهه بعنف متعجّبا:

- كلامك غريب يا موحوش، ،

- لا تستعجل الطيبات يا عم، ، هي خالتي، ، ، وهي زوجة أبي، ، ، وهي زوجة بوعلام، ، ،

- .....

- لقد نهضنا يوما لنجد أبي جثة هامدة، ، ، بين أرجل الأبقار، ، وأخبرت جوهرة "المعلم" بوعلام الذي أتى ومعه الشرطة ليعلنوا بأن أبي مات قتيلا..

- فغر بوعكاز فاه مردّدا :

- قتيلا.. قتيلا، ، ، أي شخص مجرم قام بقتله؟!

- لم يكن شخصا يا عم، بل كان حيوانا...

قاطعه بوعكاز:

- نعم حيوان وأكثر ولا يسمى المجرم إلاّ حيوانا مفترسا، ، ، قال موحوش في ألم:

- إنه حيوان حقا يا عم وليس إنسانا، هكذا صرّح تقرير الطبيب الشرعي والشرطة القضائية، ثور... ثور انطلق من مربضه وطعن بقرنه بطن أبي، لقد وجد الدم على قرن أحد الثيران..

قال بوعكاز في تعجب وألم:

- سبحان الله...

واصل موحوش حديثه في حسرة:

- قد يكون ثور طغت عليه غريزته الحيوانية، فقصد أنثاه ليلقحها فوجد أبي يقدم لها التبن وحاول إرجاعه إلى مكانه فهاجمه الثور بقرنيه، ، ولم يتحمل نتائج عمله، ، لم يتحمل مسؤولية الجريمة لأنه حيوان لا يعقل...

أكد بوعكاز ذلك:

- مثل المجنون والصبي لا محاسبة ولا عقاب لهما، ، هكذا قال لي الحاج بوعلام، ، وخالتك أحقا هي زوجة الحاج...

- نعم هي زوجته، ، ، ما كادت تنتهي بعض الشهور بعد موت أبي حتى التحقت بمنزله كخادم خاص به... ثم زوجة له بعد طلاق زوجته إثر وفاة أبي بشهر واحد... لقد بنت جوهرة سعادتها على أنقاض أبي، ، ، لكن كما يقول المثل: كلّ ذات بعل ستئيم.

هزّ بلقاسم رأسه في عطف وأسى:

- وأنت يا بني كيف كان مصيرك بعد مقتل أبيك وزواج خالتك بالحاج؟

- كما ترى، ، ، أشتغل في حقل الحاج وإسطبل بقراته، ، ، فقد انقطعت عن الدراسة وأنا على أبواب امتحان البكالوريا.. عندما غاب من كان يعيلني، ، ، وها أنذا بعد الفراش الوثير أنام في التبن حارسا للأبقار...

مسكه بوعكاز من يده قائلا:

- والحاج... الحاج ألم يساعدك، ألم يضمّك إلى أسرته؟!

قال موحوش في استغراب وتعجّب:

- لا أدري لماذا تصرّون على تلقيبه بالحاج مع أنه...

هذا الرجل حتى اسمي لم يسلم منه بعد أن كان محمد صار على لسانه موحوش.

أراد بوعكاز أن يختبر مقدرته في التحقيق فسأل موحوش:

- أراك لا تذكر الحاج بهذا اللقب؟!

- آه.. يا عم هذه قصة لا يسعني الوقت لسردها ، ، فقد آن وقت تقديم التبن للأبقار...

وغادر موحوش الحديقة تاركا بلقاسم بوعكاز باهتا فيما سمعه بين مصدق ومكذب...

شمله تفكير غريب وتغيرت ملامحه عدّة مرّات بارتداء وجه مختلف الألوان وراح يفكّر تفكيرا عميقا لا يعلم مداه إلاّ اللّه.... باغته الحاج بوعلام قاطعا حبل تفكيره.

- إنك حكيم يا بلقاسم... تفكّر قبل أن تقرّر... لكنك أطلت التفكير، فما رأيك في الشاب موحوش؟

جمع كل ما في وسعه من صبر ليضغط على شفتيه امتناعا عن النطق بكلمات انهالت عليه كالسيف ونبس بكلمة:

- ممتاز..

- جيد يا بلقاسم وتكون بذلك قد صاهرت سكان الحضر، وأطمئنك بأن ابنتك تسكن هي وزوجها هذه الفيلا وستزورهما متى تشاء... هل نذهب إلى المسجد لقراءة الفاتحة؟

تأفّف بوعكاز وقال:

- لقد سبقه آخرون لطلب يدها يا حاج..

سأل بوعلام أباها مستفسرا في قلق:

- من هذا الذي تستطيع أن تجد عنده صفية أرغد العيش غير موحوش في هذا المكان؟!

أجابه في فتور:

- سالم ابن العجوز... ما رأيك فيه؟

قام الحاج بوعلام من مجلسه مندهشا غاضبا:

- ماذا تقول؟ سالم بن البكوشة ذلك الفقير يجهل حاضره ومستقبله، بل حتى ماضيه... ذلك القرد الحقير يقترن بهذا الغزال، ، ، لا. لا مستحيل هل جننت يا بلقاسم... أتترك الفيلا والمال و... ألا تعلم بأني حضّرت الجهاز مسبقا من فساتين وقماش وحلي ومجوهرات، ، ، هل جننت؟!

- هذا ما اتفقت عليه ووالدتها..

- غريب، ، صفية تزف إلى إنسان شريد يسكن الكوخ، ، ، لا يكسب قوت يومه، ، لولا أمه التي تكنس في المدرسة، لقتلهما الجوع منذ زمان...

ثار كبرياء الحاج بوعلام وراح يفكر في إيجاد طريقة تجدي نفعا ، ، وقال في نفسه يجب أن أشدّ الأسد من ذيله وصرح قائلا:

- لكن الأهم هو رأي صفية صاحبة الأمر، التي لا توافق على هذه الزيجة... بالتأكيد ، ، ، فقد اعتادت على حياة النعمة ونعومتها زد على ذلك الحقائب من الثياب الثمينة التي أهديتها إياها ، هل تكون معاشا للفئران في كوخ سالم (همس في أذن بوعلام قائلا):

- أين عقلك ألا تعلم بأن سالم لقيط ليس له أب شرعي، ثم رفع صوته مناديا في حماس:

- صفية... أسرعي بالقهوة.

عاد إلى جلوسه قائلا بهدوء:

- بالتأكيد لا توافق...

قاطعه بوعكاز:

- أنت أدرى مني في هذه الأمور، ولكننا أولا وأخيرا أولى أمر صفية وهي....

- توقف بوعكاز فجأة عن الكلام وجف الريق

في حلقه واعترضت كلماته غصّة فماتت الحروف على شفتيه، وقف الاثنان:

توسطت صفية الغرفة سائرة بخطى وئيدة، ملابسها مخالفة للباسها الأول...

- ما هذا اللباس يا صفية؟

كانت عَبارتها الجارية تردّ عليهما، تقاطرت الدموع على ثيابها البالية التي كانت تلبسها، ثياب الريف التي قدمت بها في السفر إلى المدينة أوّل مرّة.. الجبة تحاذي معصميها واللّحاف البني يشمل رأسها وجزءا من ظهرها،،، لم تكن تحمل في يدها شيئا، جرّدت جسمها من كل هدايا الحاج، قالت في صوت متهدّج، يخنقه الشهيق:

- هيا يا أبي....

اقترب الحاج منها مستفسرا في اندهاش متصنّع:

- صفية لماذا لماذا؟! ومدّ يده مربّتا على كتفها فصرخت في وجهه مبعدة يده في قوة ونفور:

- أغرب عن وجهي أيها المجرم الخائن...

تقدم منها أبوها وقد احتمى بنار الغضب:

- ماذا تقولين...؟!

- إنه وغد... كلب حقير...

لم يشعر بوعكاز بكفه وهي تهوي صافعة وجنتها... بينما وقف الحاج بوعلام متردّدا بين متكلم وصامت.. وخرجت باكية تحمل ألَاما وهموما فتبعها أبوها، ، ، وعندما كانت القرية تودّع النهار وتستقبل الشفق الأحمر، أشرف بوعكاز وابنته عليها، ، ، كانت صفية تتبعه بخطى سريعة تحمل قلبا محطما وحزنا عميقا...

۞ ۞ ۞ ۞

- لو يعود الشباب يوما سترى عمك سليمان ماذا يفعل...

توقف عثمان يتأمّل بعد انشغاله بإشعال سيجارته، ، اندفع من جوفه دخانا حاملا في خيوطه معاناة أعماقه... واصل الكهل سليمان حديثه:

- هات سيجارة يا عثمان لأقص عليك قصة شبابي... آه لو يعود، ، أخرج عثمان سيجارة ومدّها لسليمان قائلا في تأفف:

- لو.. لو يقال أنها مفتاح الشيطان...

شرع سليمان في إعادة قصة حياته للمرة ما بعد الألف.. كان يجد عذوبة لا مثيل لها في سردها على كل شخص يجتمع به...

استرجع ماضي شبابه، توقف عدّة مرّات ليستعيد الذكريات فيصوّرها مباشرة، ذكر رعيه للبقر عند القايد أب الحاج بوعلام مقابل إعفاء والده من الضريبة السنوية، ، ، وغرق في ضحك فجأة وهو يقول:

- كم كان موقفا عجيبا والحاج بوعلام في يوم من طفولته يسقط من فوق الحصان، فعاقبه بالحجز في الكوخ لمدة ثلاثة أيام دون أكل وشرب، ،

أسكته عثمان بإشارة من يده، وما كاد ضحكه ينقطع حتى وقف بوزيد على رأسيهما قائلا:

- حكايات... حكايات والعمل متوقف.

فقال سليمان:

- ألا نشعل سيجارة؟! ألا يسمح لنا العمل بدقيقة استراحة، قال بوزيد:

- دقيقة زائد دقائق تساوي ساعات وأياما تقابلها

مبالغ مالية تقبضونها من خزينة الحاج بوعلام، اكتفى سليمان بهزّ رأسه بينما قال عثمان في صوت خافت:

- وهل تؤثر الجرعة في حجم البحر؟ ما أغبى الإنسان رغم عينيه الكبيرتين لا يرى أخطاءه الكثيرة، ، ،

وامتلأ الجو ضجيجا بصوت المنشار ذهابا وإيابا يتعثر في قلب شجرة الصفصاف التي لم تستطع الوقوف على جذعها بعد أن طعنَت أسنّة المنشار أعماق لبّها فتهاوت على الأرض جاثمة ومعها سنينها الطويلة... وانتقل المنشار إلى أغصانها، فكانت تضطرب كالأشلاء المنثورة التي بترتها شظايا القنابل، ، ، صامتة لا يهزّها نسيم ولا يغمرها انتعاش كالمرأة التي داهم أبناءها الردى وهي في سن اليأس، ، كانت القطرات تنساب من كل غصن مقطوع كالدموع وتنزف من البراعم كدماء جراح الأطفال..

- .....

نفذ المنشار حكم الإعدام في أشجار القرية، كانت علامة الاتهام الدهن الأبيض على جذوع الأشجار التي كانت تستلم للقرار الذي نفذه الحاج وصفق له حارس الغابة.

قال ذات مرّة لبوعلام الحاج:

- وماذا تريد أيضا يا سي الحاج؟

- الحجر... الصخور لو أستطيع تحويلها إلى قوالب وأبني لك قصرا في ساحة الشهداء بالعاصمة.

ضرب يده مصافحا إياه في غبطة... وغرقا في قهقهة عالية، ، نزع حارس الغابة القبعة التي كانت على رأسه وأبحر بأصابعه وسط شعره الكثيف قائلا:

- لقد رخصت لك قطع أشجار القرية باستثناء الأشجار الفتية التي... قاطعه الآخر في حذر:

- تمهل... تمهل وما يهمك أنت في قطع الأشجار كلها وخاصة الصفصاف والصنوبر فالدولة قادرة على تعويضها بالتين والزيتون، ، هيا هات العمارة.

مدّ له حارس الغابة القبعة فوضع الحاج بوعلام فيها أوراقا نقدية من كل الفئات، ، ، نزل الحارس من السيارة وهو يقول مؤكدا:

- افعل ما تشاء، لقد رضيناك حاكما....

حملقت بعينيها الزائغتين في أمّها المنتصبة القوام أمامها وقالت:

- لم أفكّر بعد يا أماه..

- وهل يحتاج هذا إلى تفكير يا بنيتي، ، ، لقد قرّر أبوك إجابة الشيخ يحيى بموافقته على زواجك من سالم.

نبست باسم:

- سالم... سالم... وردّدت أنفاسها المنبعثة من أعماقها، سالم الماضي أوسالم الحاضر، ، أين أجده بل أين يجد سالم صفية الأولى في ركب الحياة، ، هل يدري بأن صفية الحقيقية انتحرت، ، انتحرت في لحظة حياة، ، ما أضعف الإنسان، ، تهزمه شهوته لا يستطيع مجابهتها، ونراه يطمح إلى حكم العالم أناسا وعبيدا جزرا وإمبراطوريات ما أجبن الإنسان أمام سلطان نفسه العتي، ، ،

لم تدر عزيزة إلى أي مدى وصل حبل تفكير ابنتها صفية فقطعته بسؤالها ثانية:

- أتدرين بأن الخطوبة وقعت منذ شهور وأبوك تردّد في القبول رغبة منه في موافقتك، ، ، كيف لا توافقين على أحسن

الشباب عندنا أخلاقا وعلما، ، آه يا سالم لوكنت من جيلي لصنعنا المستحيل الذي ترى فيه هذه البنت الغريرة العبرة...

تهاوت صفية على صدر أمها تبكي بحرقة:

- أماه... أماه... يكفي، يكفي لا تعذبيني، ، ، حقا أنا غريرة تافهة، لا أليق بسالم أرجوك يا أمي إني أحسّ بالصداع يمزّق أعصابي، ، ، يفتّك بأوصالي، أرحموني يابشر، ، ،

شعرت بالانقباض في محيط وجدانها الذي احتوته الشكوك والهواجس، اعترفت لنفسها أكثر من مرّة، حاولت أن تجبر ضميرها على الاقتناع بالحقيقة، لكنّه أصرّ على نكران الواقع وتقاسم كيانها الوسواس والآلام ونفسها تغرق يوما بعد يوم في بحر من الأشباح والخيالات التي حوّلت المرئيات إلى كوابيس مزعجة، ،

تعمّدت الخلوة والانعزال عن والديها، تشكو لخالقها غزو الآلام التي كانت تداهمها في أعاصير هوجاء من حين لآخر، ، ، فتبدو لها الحياة جحيما لا يطاق، ، لحظات القيء والشعور بدوران الأرض ينتابها من حين لآخر، ، ، الحركات اللاإرادية في أحشائها التي تحتضن نباتا غير شرعي، ،

براعمه أشواك تصل أعمدتها إلى القلب وتتغرس فيه، فيدمي ليلا نهارا.

شعرت الأم ببعض التصرفات الغريبة التي كانت تصدر عن وحيدتها، ولاحظت الأحوال التي طرأت على صفية بعد عودتها من المدينة، لكنها حاربت أفكارها بالصمت إلى أن سألها زوجها بلقاسم:

- لماذا لم تعد صفية كالماضي ثرثارة، ، هل هي مريضة أم أنها تعوّدت على حياة الترف؟

وجدت عزيزة نفسها تجيبه إجابات متتالية:

إنّ كلّ بنت تفاجأ بالخطوبة، لا تعرف الخطأ من الصواب في البداية، ويستولى على عقلها التفكير فيقلّ كلامها وإذا تمّ العقل نقص الكلام، ، إنها مقبلة على حياة جديدة، ، صفية التي ترعرعت في أحضاننا مدلّلة معزّزة، ، يشقّ عليها فراقنا، أليس كذلك؟

حقا.. حقا، كان الله في عونها.

داومت صفية على المكوث في غرفتها الصغيرة، والاستلقاء على سريرها المتواضع... لم تعد أطرافها نشيطة وبدأت الحيوية تنأى عن جسمها، ساقاها عاجزتان عن حمل شخصين يجتمعان كرها، ،

كانت تنتهز فرصة وجودها بالفراش لتتأمل جسمها البض الفاتن الذي غزاه الفتور، متسائلة:

- "لمن هذا الهيكل المزين؟ ملكي أنا؟ أنا حقيقة؟ وإذا كان ملكي فلماذا يتصرف الآخرون في نفسي، يبيعونها يشترونها في سوق الأقدار، ، يشرّحونها على كل طاولة وفي كل فراش، لا. لا أنا لست صفية التي يعرفها الناس ويعرفها سالم أغلى الناس وأعزّهم، ،"

استحضرت حديثهما تحت شجرة الصفصاف فجاءت الذكريات تصوّره في لون من العذاب:

(إن العش الذي يجمعنا قريبا سيكون أسعد عش تراه الشمس...)

انتبهت إلى بروز بطنها من يوم لآخر، ، ، وتساءلت من جديد ودموعها تقطر ندما:

"كيف تحوّلت بين عشية وضحاها إلى أمة إلى آلة

مقهورة ذليلة تحت سطوة الإنسان لا ، لا ، الآلة ترضخ للعلم لا للبشر ، ، ، بينما أنا رضخت للإنسان مباشرة ، ، سقطت بغروري في الهاوية والغرور أدنى درجات المعرفة ، ،

ماذا تحمل أيها الجسم المريض ، ، ، ماذا تخفي أيها البطن المنتفخ ، ، في أي سجل كتبت الأقدار اسم هذا المنتوج الغريب ، ، أهو ذكر ينشأ سفاحا مجرما يقتل الناس في ربيع حياتهم مثلما يفعل أبوه ، ، ، أم هي أنثى ضعيفة هيّنة تقذفها التيارات والأمواج إلى شطوط الهلاك والضياع كأمها التعيسة ، فراشها جمر وغطاؤها حميم ، ، أيّها النائم في أحشائي من الجاني على الآخر ، أيّتها القطعة المرفوضة مسبقا ، هل ظلمتك بوجودي بوضعك في حياة كلّها سعير ، أم أنك ظلمتني ، حيث دخلت حياتي دون استئذان فحولتها إلى جحيم لا يطاق وصار طعم العسل علقما ، ، ، ،

رياح الخريف تبشر بفصل ممطر ، تتذر السكان قصد الاحتياط .. كانت بكوشة أم سالم تحدّث نفسها بذلك وظهرها مسند إلى حزمة الحطب في طريقها إلى البيت ، تبدو في العقد الخامس من العمر ، نحيفة الجسم كثيرة التجاعيد ، تتعثّر في مشيتها كأنها عرجاء ، يبدو

من ملامحها شريط المحن والشدائد التي واجهتها فأضافت إلى سنها الحقيقي عشر سنوات، ، ، قالت في نفسها:

- الخريف مهلة لتحضير الحطب الذي يطرد برد الشتاء، ، الخريف، ، الخريف، ، ، آه من الخريف الذي أبكاني، أسال دم قلبي حزنا وأسى، بعد أن أدمع خريف سابق عيني فرحا وطربا، ، ،

شريط الذكريات يمرّ، ، واللحظات توزّع على الملامح الابتسامات حينا والاقتضاب أحيانا أخرى، ، كثيرا ما نزلت الدموع لتجد الثغر مبتسما فتمتزج الدموع بالابتسامات، ، امتدت نظراتها عبر الآفاق مخترقة ذيول الضباب الذي كان يسود السفوح، ، ظهرت القمم كرؤوس عماليق اندفعت من الأرض مخترقة السماء، ، تراقصت أمامها في حركة عمودية كلما خفقت أهدابها الدامعة عبر خصلات شعرها، حاملة رسالة القلب المنفطر الذي خفق كالطائر المهيض الجناح، ، رفعت يدها فجأة ومسحت الدموع تريد التأكد من حقيقة الأشباح التي تراءت لها، ، حدّقت ببصرها متحدية بقايا الضباب الذي بدأ في التلاشي بعد الإطلالة الأولى للشمس على المنطقة، ، أخرجت جيدها من بين الحبال التي كانت

تربطها إلى حزمة الحطب وانسلخت عنها واقفة، ، ، اشرأبت بعنقها تقرّب المسافات إلى بصرها الذي أبلغها الخبر.. تمدّدت أحبالها الصوتية تريد الصراخ، الصراخ لكنها عجزت عن ذلك، جرت مسرعة تحمل الحصى في يديها، ، حاكت من عباراتها المنصبة ومن غضبها خيوطا لنسيج الثورة على هؤلاء الأشباح، معلنة ميلاد ثورة كامنة تحت وطأة الدهر والأقدار، ، امتدّت خطاها تطوي الأرض في اتجاه الثلاثة الذين انتبهوا لقدومها عن بعد.. البذور تتناثر هنا وهناك على وجه الثرى، نقاط على الأرض تحاكي بشرة الفلاحين في اللون، قال أحدهم:

- إن بكوشة تجري نحونا،

ردّ عليه صاحبه في سخرية:

- إنها تهوى الرياضة.

بينما اعتلى بوزيد الجرار ليواصل الحرث ولسانه يقول في استهزاء:

- بلا شك ستخلف مكان "رونو" في بطولة العالم للعدو (وقال آمرا):

- هيا يا سليمان، ابعد هذه الأحجار المتجمعة، وخذوا بقايا الشمع الموجودة عليها لنضيء بها الدكان هذا المساء....

قبل أن ينهي حديثه كانت بكوشة تقف أمامه في جرأة وتحدّ وكفاها مملوءان بالحصى، ، كانت تشير نحو الأحجار المكدّسة أمام عجلتي الجرار، ، قالت ما لايفهم ويدها تلوح بالابتعاد عن الأحجار، ، أدار بوزيد محرك الجرار غير مبال بطلبها، ، حاول تحدي وقوفها في اقتحام الأحجار بالمحراث وهو يقول:

- العجائز الجاهلات في كل شجرة ولي وفي كل صخرة صنم يزرنه، ، الشمع والبخور....

قاطعه الجيلالي:

- لا شك أن بكوشة تدعو هذه الأحجار لتجود عليها بزوج مناسب(قهقه الثلاثة)، ارتمت بكوشة على الأحجار محتضنة إياها كالطفل الصغير الذي لا تريد أمه تسليمه للمنية.

الشهيق الهستيري يخنق صوتها المبحوح، شفتاها تطبعان القبلات على الأحجار في صورة غريبة، احتقنت حلمتا أذنيه

بالدم وأعماه الغضب فوثب من فوق الجرار الذي يبدو كأنه يئن تألما للمشهد الدرامي المعروض أمامه، ، حملها من خصرها كقفة الخضار وألقى بها بعيد عن المكان وعاد إلى الجرار متهجما على سليمان والجيلالي:

- امرأة بكوشة، ، وغلبتكم، ، أكيد أن زوجتيكما تفترشانكما في المنزل كما تفترش البرادع الحمير (ثم أردف متضجرا):

- لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب.

واعتلى جراره محدّثا في محركه صوتا عاليا، ، ، مرت عجلات الجرار على الأحجار المكدّسة بصعوبة، وقبل أن يصل المحراث إليها انتفض بوزيد على عجلة القيادة وسقط على الأرض صريعا يتخبط في عنف، والدماء تسربل وجهه وصدره، ، ، أصابت الحصيّات الهدف كانت بكوشة قد أحسنت تسديد رميها فأصابت بوزيد في رأسه....

وجدت نفسها بعد دقائق وحيدة في ذلك المكان، نظرت حولها كثيرا كأنها تبحث عن أثر حلم عابر، ، ، لم تجد سوى أثر الجرار الذي حاول تفريق الأحجار المقدّسة، ورأت قطرات الدم على بعض الحجيرات، ، ، تأملتها كثيرا

استنطقت فيها جروح الماضي، إعصار الذكريات التي صنعتها هذه الأحجار، ، ، بكت في حرقة، زادت دموعها التي انسابت بين الأحجار للثرى الندي بللاً، الدموع الحارّة التي لم ير الوجود لصدقها نظيرا... عيناها تبعثان بريقا انعكست على ومضاته أشعّة الشمس التي كانت تتوسّط كبد السماء في يوم رفضت بكوشة أن يكون له نهاية، كانت تريد أن يمتدّ طويلا طويلا...

أدخلت يدها في لباسها وأخرجت من حزامها علبة كبريت وأشعلت بقية الشمعة التي كانت على إحدى الأحجار، احتوتها بنظراتها الشاردة، ، ، قرأت عليها آيات النضال والتضحية، ابتسمت لتقاطر الشمع كالدموع، ، ، أحست بأن الشمع رفيقها يعاني الاحتراق مثلها في هذا العالم، شاركته دموعه، ، ،

مرّت ساعة وبكوشة جاثمة في مكانها أمام الأحجار، تشعل بقايا الشمع الذي تطاير بعيدا اثر قذفة برجل شيخ البلدية وهو يقول:

- احملوا هذه المجنونة إلى السجن...

فشا خبر بوزيد وبكوشة في القرية كالطاعون وانتشر في أرجائها انتشار الكهرباء، ، ، وردّد كل لسان:

- البكوشة قتلت بوزيد.

قال ذلك بلقاسم بوعكاز في تعجب ثم أردف قائلا:

- بوزيد رجل كالأسد، يموت على يد امرأة بكوشة.

قاطعته زوجته عزيزة:

- عند النطاح يغلب الكبش الأجم، ثم أنسيت أنها أم سالم وهو الذي طلب الزواج من ابنتنا....

- لم أنس، لكن الحمد لله ليس بيننا أي اتفاق، ، ، وهل بقي لهما مقام في هذه القرية بعد أن أحرق حارس الغابة كوخهما الذي ينامان فيه.

وقفت عزيزة فاغرة فاها، مستدركة:

- نسيت أن أخبرك...

جمع انفعاله واستفساره في عبارة واحدة قائلا:

- ماذا وقع أكبر من حادثة بوزيد؟

قالت عزيزة والخوف يعتريها:

- لقد سمعت صوت الجرار يمرّ أمام الباب ولما خرجت

لأطلع، ، وجدت الجيلالي يوقف الجرار وراء بيتنا وهو يقول مرتعدا:

- يا ربي واستر، ، ، ثم غطاه بأوراق نبات الذرى، ، ألم تلاحظ ذلك؟

لم يجبها بوعكاز عن سؤالها، وقف كمن لدغته أفعى وخرج مسرعا إلى وراء بيته، ، ، ولم يلبث أن عاد مسرعا، ، وقد اصفرّ وجهه من أثر الدهشة، سألته زوجته:

- هل رأيته؟

قال مرتعدا:

- مصيبة، ، مصيبة، ، إنه الجرار الذي كان يسوقه بوزيد أثناء الحادث.

احتارت زوجته وقال سائلة:

- لكن لماذا يأتون به إلينا في هذا اليوم بالذات كالضيف الفار من السجن؟

حرّك شملته قليلا وضرب بكفيه قائلا:

- ألا تلعمي أن الجرار تابع....؟ (توقف عن الكلام ثم قال):

- لا، ، لا داعي.

مسكته زوجته عزيزة وهي تحثّه:

- قل.. قل، لمن تابع هذا الجرار...

- لا شيء، لا يهمّك؟! وقال في نفسه:

يقال أن بعض النساء بقرات إبليس...

❁ ❁ ❁ ❁

مرّ الأسبوع الأول بعد حادثة بوزيد الذي نقل إلى المستشفى بين الحياة والموت، توالت الأخبار على القرية فتكوّنت الأفكار والآراء في أذهان الناس التي تعوّدت على الفتور، وقف الشيخ دحمان أمام الدكان المغلق معلنا رأيه:

- المرأة خارجة عن القانون، عن الشريعة يجب أن تنال أقصى العقوبات مع نفيها.

قال معمر في هدوء:

- لم أكن أظنك تحسن القضاء أيها الإمام.

ردّ عليه شيخ القرية مبتسما:

- لقد كان عمر بن الخطاب قاضيا وإماما...

وقف معمر مواجها الشيخ دحمان:

- وهل كل قاض عمر وكل إمام علي...؟

تدخّل عثمان:

- لو دفن عمر بن الخطاب قائما لبقي العدل قائما، ، لكن على كل حال المذنب المحبوب سرعان ما تتكشف براءته.

أخذ الحديث مجراه إلى أمور شتى تحمّس لها الحاضرون، شعروا بالرّاحة عندما قتلوا نصف يومهم بسرعة، وقبل افتراقهم وصل أسماعهم صوت سيارة قادمة، علقت أبصارهم بالطريق المقابل في مدخل القرية، ، ظهرت بعد قليل سيارة أجرة في اتجاهها نحو مقرّ الدكان بوسط القرية...

توقفت السيارة، فوقف الجالسون باهتين:

نزل بوزيد بن الحاج من السيارة برأسه المعصّب بالضماد والجبة البيضاء تسترجسمه وقد اكتسى وجهه بدرع الزعفران.

لم يصدق الجماعة أعينهم، بدت لهم معجزة بعدما اعتقدوا أن بوزيد قد نقل إلى المستشفى جثة هامدة،

قال الشيخ دحمان:

- استغفر الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، ، ، ابن الحاج يعود ماشيا وحافي القدمين.

- لكن قالوا مات، هل خرج من القبر؟

ألقى بوزيد نحوهم نظرة شزراء وقال لهم في لهجة عدائية:

- نعم أنا بوزيد

اتجه مسرعا نحو منزله كأن الموت يطارده....

وعرف الناس بعد أيام الحقيقة التي فرّ بوزيد من أجلها تاركا المستشفى والعلاج...!

❁ ❁ ❁ ❁

القاعة مملوءة بالكتل البشرية على مختلف أشكالها وألوانها، الهمس يسري بين بعض الواقفين والجالسين النور يحيط بالعلم الوطني المنسق على الجدار، ثلاثة كراسي جلدية يجلس عليها أعضاء هيئة المحكمة في إصغاء تام إلى مرافعة المحامي البدين الجسم ذي البطن البارز والنظارة

السميكة التي تشف من خلفها عينان تسددان نظرتهما نحو القاضي ولسان صاحبها يقول:

- اعترف بادئ ذي بدء للمحكمة الموقرة بأني مكبر صوت لموكلي لا غير، ، ، هذا الذي يقف أمامكم ملتمسا الإنصاف من هذه الطاغية التي اعتدت عليه أثناء عمله، هذه البكوشة التي... صدق من قال:

- كلّ ذي عاهة مخيف.

استرسل في كلامه بينما كان الحضور في صمت وإعجاب بهذه المرافعة الشيّقة، ها هي بكوشة تقف دون حركة كالتمثال، تحدّت الجميع بنظراتها ودموعها، نظر نحوها المحامي في استهزاء:

- إنها سلاح النساء، دموع التماسيح، ، عين الحنفية التي تفتحها النساء لتخرج الماء متى تشاء...

تساءل المحامي متصنعا الاندهاش:

- امرأة.. امرأة ترفع يدها وتعتدي على رجل؟! تبّا لهذه الأيام...

مسح العرق المتصبب من جبينه ثم جلس وأنفاسه تكاد تفارقه، ، ،

نادى رئيس المحكمة:

- بكوشة البكوشة وأردف بعد برهة:

- إنها بكماء فليتقدم ولي أمرها، انتظر الحاضرون إلى المتقدم... فلم يظهر أحدا...

تقدّم الحاج بوعلام وهو يقول أمام الملأ المحتشد:

- لكل ساقطة لاقطة سيدي الرئيس، ، ، هذه المرأة البكوشة التي لا نعرف لها أصلا ولا فصلا نبذها أهلها عندما فضحتهم بفعلتها الشنعاء فحملت لقيطها وانتقلت إلى ديارنا حيث سمحنا لها بالإقامة بيننا، لتكافئ جميلنا في الأخير بالإساءة.

أوقف الشرطي الحاج بوعلام بإشارة من القاضي، واهتم الكل ببكوشة التي كانت تهز رأسها في نفي قاطع كأنها تعي ما يقوله الحاج، ، ، ولفت انتباه القاضي إصبعها الذي كان يشير إلى ما فوق ركبتها اليسرى، ، ، قام المحامي ونظرات الاستغراب تسبقه:

- يا للسفالة... ماذا تريد منا هذه المرأة، ، هل تظننا مراهقين، حقا إن كيدهن عظيم..

نادى القاضي على الشاهدين في الحادثة وقال لسليمان:

- إن في رجل بكوشة اليسرى آثار جرح أجبرتنا على إدخالها المستشفى، هل ضربها بوزيد ذلك اليوم يا سليمان؟

قال الجيلالي في نفسه:

- لقد عرفت سبب هروب بوزيد من المستشفى.

أجاب سليمان نافيا:

- لا سيدي القاضي، ، لم أشاهد ذلك، ،

سأل القاضي بعد ذلك الجيلالي فقال ما قاله الشاهد الأول، وتدخل محامي بوزيد:

- مجرد ندوب حاولت المتّهمة بها إيهام المحكمة لتصنع من الحبة قبة فالنساء هكذا حمى ولا حبل.

سأل القاضي بكوشة بواسطة حركات تعبيرية من يديه: (هل هذا بوزيد هو الذي ضربك على رجلك؟)

نظرت إلى بوزيد مليا ثم هزّت رأسها في نفي عدّة مرات.

سألها بحركة من يده:

- (من ضربك؟)

- انفجرت باكية ويدها تشير نحو النائب العام متمتمة

كلامـا مبحوحـا ، ، لم يتمالـك القاضـي نفـسه فابتـسم مستغربا إشارتها ثم ضرب المكتب بيده آمرا بالسكوت أوإخلاء القاعة التي كانت غارقة في كلام وقهقهة الحاضرين. بينما وضع النائب العام يده على خده متأملا بكوشة في حيرة.... تقدمت نحوه في خطى وئيدة ، حاول الشرطي إيقافها لكن النائب العام أشار عليه بالسماح لها ، ، كان الجميع في انتظار أصابعها وهي تسلخ بشرة وجهه وفي انتظار صفعته الحارة لها ، ، وقفت بكوشة وراء مكتبه ومدّت يدها إلى العلم الوطني المركز في زاوية خلف المكتب يشاهد المسرحية في صمت، ، قبّلت نجمته وضمّته إلى صدرها وقالت كلاما كثيرا غامضا ، مبهما ، وقبل أن يقف القاضي معلنا رفع الجلسة ، تهاوت بكوشة على أحد الكراسي مغمى عليها والعلم الوطني يحيط عنقها....

❁ ❁ ❁ ❁

أرخى الليل سدوله على القرية وخيّم دجاه في مرابعها ، فلجأت بعض المخلوقات إلى مخابئها.. وسكنت القرية بنوم أهلها.. بوعكاز وزوجته يغطّان في نوم عميق بالغرفة المجاورة

لغرفة صفية التي داهمتها الآلام على حين غرّة، ، ، شعرت بالاختناق وبطنها يكاد ينفجر آلاما، مسكته بحزام من قماش في شدّة، ، تضاعفت أوجاعه، ، العرق يتصبّب من جسمها بغزارة تقلّبت في الفراش عدّة مرات، جاهدت نفسها في مصارعة الألم، ، ، ، كتمت الصراخ خشية إزعاج والديها في مضجعهما.. أماه، ، أماه، ، ، ماذا أفعل؟!

ازدادت شدّة الألم، لم يجد تقلبها على السرير نفعا، مزّقت ملابسها ورمت بوسادتها، ، الغرفة مظلمة موحشة، فكّرت في إخبار والدتها لكنّها تردّدت:

- ((ماذا أقول لها، ، ماذا أقول لأبي إن علم بأني حامل وأضع الليلة مولودا غير شرعي، ، ، كيف أتحمل نظراته، ، سامحك الله يا أبي، لماذا تركتني في بيت غريب في أحضان الوحوش بين أنياب مفترس يهابه الجميع، ، ، إلهي انتقم من بوعلام الوحش..))

لم تستطع مقاومة الإعصار، وضعت يدها بين أسنانها التي ضغطت على أصابعها في عصبية حتى تنزى الدم منها، شعرت بأن جسمها يتقطع إربا إربا، ، ، بعثرت الفراش بقدميها المضطربتين، ، ، مزّقت عقد الحروز التي جلبها

أبوها من إمام القرية، ، لم تنس ما قرّره قبل نومه:

- غدا أسافر بها إلى الطبيب وأتركها في منزل الحاج حتى تشفى، ، ، في المدينة أطباء العلاج المجاني يعرفهم الحاج بوعلام.. زاد أنينها الممزوج بالهذيان:

- آه.. لا... أراه.... لا... كلّكم... أماه.. يا رب...

انخفضت حرارة أوصالها فسرت البرودة إلى أطرافها، ، حاولت النهوض فلم تفلح، ، ، استعانت بالدار، شعرت بالدوران المصحوب بالقيء، ، وهنت رجلاها في التواء وضمور، ، فتحت الباب بصعوبة قبل أن تبرك على الأرض، ، خرجت من غرفتها تحبو نحو الخارج، ، لفحت وجهها برودة النسيم العليل، ، منازل القرية مظلمة، ، صوت الحشرات ينبعث من شقوق الجدران، اجتمعت كلاب الجيران حولها دون نباح، ، ، استعادت قليلا من الحيوية فمشت خطوات لاتدري اتجاهها، ، لم تشعر بقطرات الدم السائلة من يدها ونصفها الأسفل، التصقت ملابسها السفلى بساقيها، ، ظلام دامس وهدوء تام لا يشوبه إلاّ نباح الكلاب ونهيق الحمير في مرابضها وصراخ صفية الداخلي، ، ترجرجت أحشاؤها في عنف واضطربت أطرافها في تنافر فسقطت

على الأرض مرتعشة، ، فشلّت في الحبو على أطرافها، ، تقلّبت على جانبيها مرات عديدة، اخترقت مناخرها رائحة كريهة:

- لا، ، لا أغرق في مستنقع تتبول فيه الحيوانات البشرية... لا... لا....

أشرفت على منحدر فانقلبت متدحرجة بجسمها إلى منخفضه، ، ، لم تشعر بالأشواك التي انغرست في جسمها، ولم تكن سوى بعض الأمتار تبعدها عن العين الجارية، ، ،

اشتدّ الألم وعاودها الإعصار فأغمي عليها، ، ،

تحركت مع السحر في شبه استيقاظة، أحست بسعير الحمى يلهب أمعاءها، ، والضمأ يخنق عنقها، ، جرّت جسمها على ظهرها وبصوت مبحوح قالت:

- أماه، ، الماء، ، قطرة... لم تستطع الصراخ، ، كان لسانها يلهث طلبا للماء...

تمدّدت على جنبها الأيسر ثم انقلبت مرتين، ، ، لمست الماء بأنامل قدمها، ، ، فاقتربت من العين واضعة وجهها على صفحة الماء لتعبه عبّا، جرف تيار الماء شعرها المتناثر

وحلّل ما مزجه الدم المخضب، ، عادت إليها أنفاسها فتأملت المكان حولها فتبين لها شبح مخلوق يرقبها بعينين زائغتين في صمت حزين، ، إنّه كلبها يقبع أمامها لا يدري ماذا جرى لصاحبته التي كانت تحاول الاقتراب منه فشعرت بثقل جسمها الذي كان يلتهب حرارة. اصطكت أسنانها وفتحت ثغرها في نداء متقطع، ، أ.. أ ما... ه اضطربت أطرافها من جديد، عضّت على شفتها السفلى في شدّة، حاولت أن تمسك بيدها شيئا تضرب به الأرض، ، ، لمست جذع شجرة الصفصاف، فتذكرت.... الماضي، ، ، مرّت بأناملها على أثار المنشار، جمعت جاهدة ما بقي فيها من جهد وارتمت على جذع الشجرة المقطوعة تناجيها في أنين حزين:

- أين أنت أيتها الصفصافة، أين ربيعك؟! ماذا فعل الوحش بأغصانك؟!

انتفضت حول الجذع وبكت في حرقة ولسانها ينادي في همس: سالم...أين أنت؟! سامحني يا...

غرق جسمها في بحر من العرق والدم واحتمى بحمى الحرارة المتّقدة في كيانها، زاغت نظراتها واصفر محياها حاولت أن تستغيث، لكن الحروف ذابت على شفتيها،

تمدّدت أطرافها وانتفضت في شدّة عدّة مرّات، ثمّ همدت مرّة واحدة مسلمة روحها لخالقها....

عاد سالم ومحمود إلى قريتهما بعد غياب طويل دام فصلا كاملا، اهتز كيانه من النظرة الأولى التي تعود أن يحي بها القرية، فرّك عينيه غير مصدق قائلا لرفيقه محمود:

- انظر، ، ، هل لاحظت؟

رد محمود مبهوتا:

- غريب ماذا وقع لها؟!

لم يكتشفا للوهلة الأولى سرّ تغير وجه القرية التي بدت سافرة، كئيبة، فاقدة النضارة والبهاء، وقفا في استغراب:

- أين الصفصافة يا محمود؟ هي ليست في مكانها....

- إن قريتنا عارية، ، عارية لقد سلبوها ستارها....

- لقد فضحوها...

واصلا سيرهما يحثان الخطى في عجلة، يبحثان

عن الحقيقة التي حوّلت وجه القرية من اخضرار دائم إلى صيف أصفر، إلى صحراء جرداء، بعد قطع مئات الأشجار التي كانت تحتضن المنازل والطرقات بأفيائها الوافرة...

- جريمة في حق قريتنا، أين رجالها؟!

لم يجد ردّا من جماعة الشباب الذين ولوا بظهورهم مدبرين، اتبعهم بندائه:

- رشيد، ، ، عبد القادر، ، ، الميلود، ، ، عزيز إلى أين؟ ما بكم؟! خاطب صديقه محمود:

ما أصاب هؤلاء القوم، لماذا صدوا عنا مدبرين؟

- لم يتغير وجه القرية فقط، بل تغير أهلها كذلك، تعال إلى منزلنا لنعرف الحقيقة، ، ،

- إني في لهفة لرؤية أمي يا محمود بعد ثلاثة أشهر من الفراق...

سأطمئن عليها ثم التحق بك إلى بيتكم..

- وأنا أيضا أرافقك لأسلم على خالتي البكو... (صمت محمود قليلا ثم غير مجرى حديثه):

- أريد أن أعرف من حركاتها الرزينة جواب

أهل صفية في موضوع زواجك بها...

- أه يا محمود لو تعرف ما فعلت بي الأشواق، إن الشوق للقاء الأحبة صفية يكاد يقتلني هيا... أسرع.... أسرع.

كانت أزقة القرية مفروشة بأوراق الأشجار الشاحبة التي تساقطت من الأغصان اليابسة المكومة أمام المنازل والبيوت احتياطا لأيام البرد القارس... سارا في طريقهما قاصدين كوخ العجوز أم سالم، فالتقيا صدفة بالشيخ يحيى والد محمود:

- إلى أين تسيران يا أبنائي؟

سأل الشيخ يحيى بصوت متهدج ونبرة حزينة، ، أقبل الاثنان يسلمان عليه في حرارة ويسألانه عن الأحوال...

- الحمد الله، ، تعالى معنا يا سالم؟

سأل سالم في حيرة:

إلى أين يا عم؟

- إلى منزلنا إن أمك ليست بهذه البلدة.

- ماذا جرى... هل أصابها مكروه؟

- إنها بخير، ، لا تقلق سأقص عليك كل شيء

في البيت، ، ، توقف سالم قائلا:

- انتظروا خمس دقائق، أضع أمتعتي في بيتنا وأعود في الحين...

هزّ الشيخ يحيى رأسه قائلا:

- لم يبق من بيتكما إلاّ الرماد، لا تتعب نفسك، لقد أحرقه الطغاة، ،

سأل سالم:

- ماذا... ماذا؟!

قرأ في عيني الشيخ يحيى الحزينتين آيات الكارثة فتوقّع ما لا يسر، وضع أمتعته على الأرض وجرى مسرعا قاصدا الكوخ... تبعه محمود والشيخ يحيى في سرعة، وقف سالم بين أكوام الرماد والأعمدة الفاحمة... يتأمّل بقايا الجدران، ، ،

- عما تبحث ياصديقي؟

- .....

- سالم؟!

- أبحث عن رائحة أمي، ، عن طفولتي، ، عن لعبي، ،

عن شجرة التوت التي غرستها ، ، ، عن شجرة الصفصاف التي ارتويت تحت ظلالها بالعواطف النبيلة...

- من فعل هذا بقريتنا يا أبي؟!

- ومن تظن يا محمود غيره؟! أنه.. هو

التقت النظرات تحمل المعاني الكثيرة التي لم يجد لها اللسان منطقا... نظرات سالم التي تحملق في الشيخ يحيى مستطلعة الإجابة عن مدى الكارثة...

نظرات محمود المسرحة في الفضاء ونظرات الشيخ يحيى الذي يخشى غرق سالم في دجى الهموم إن أخبره بما يختزن صدره من أسرار...

إغرورقت عيناه بالدموع وسأل:

- وأمي هل أكلتها النار؟! صارحني يا عمي... أرجوك.

- في المستشفى يا بني... إنها تعالج.

- اقترب منه ومسك بجلابيبه:

- هل حالتها خطيرة... أين مواضع الحروق...؟

وضع الشيخ يحيى يده على كتف سالم مربّتا:

- لا تخش يا بني شيئا ، ، إنها لم تكن في الكوخ

أثناء الحريق، بل لم تكن في هذه البلدة..

هيا معنا إلى المنزل نشرب قهوة ونتحدّث...

سار الثلاثة في اتجاه البيت وعند الاقتراب منه استقبلهم الأخ الأصغر لمحمود، فسلّم عليهما وبدا عليه أنه يريد إخبارهم بأشياء، فقد اعتاد أخوه محمود أن يسأله:

بشير.. بشّرنا بالأخبار التي حدثت أثناء غيابنا،،، هيا يا وكالة الأنباء...

تطلع بشير إلى وجوههم ثم قال لأخيه محمود في صوت مسموع:

- محمود هل تعلم؟
- ماذا يا بشير قل؟
- صفية،،، ماتت

توقفا عن السير وتطلعا إلى الشيخ يحيى يتأكدان من الخبر، ، وهزّ الشيخ يحيى رأسه في إيجاب قائلا:

(كل من عليها فان).

جمد الدم في عروق سالم،،، نزل الخبر عليه كالصاعقة وردّد:

- صفية، ، ، هي بالذات، مستحيل، ، ، كذب، ، ، فقد توازنه وكاد يهوي على الأرض لولا محمود الذي حال بينه وبين السقوط... استرجع بعد برهة قليلا من توازنه واهتزّ كمن لدغته عقرب، ، ، جرى في أزقّة القرية يسأل الأطفال:

- ماتت صفية؟! أمي في المستشفى...؟!

أجابوه:

- نعم... نعم

- كذب... كذب،

صمت الأطفال في اندهاش سرعان ماتحوّل سكوتهم إلى ضحكات بريئة... وواصل سالم سيره سائلا كل من يصادفه:

- بوزيد.... صحيح صفية....

لم يعره بوزيد أي اهتمام، ، ، مسكه سالم من ذراعه قائلا:

- أجبني يا بوزيد... ماذا حدث لصفية وأمي؟

نهره بوزيد بنظرة احتقار قائلا:

- ابتعد عني يا ابن الحرام... اسأل عن أبيك قبل أن تسأل عن صفية..

لم يصغ إلى بقية كلامه، ابتعد عنه وهو يردّد:

- كذب... افتراء...

هرع مسرعا نحو شجرة الصفصاف... كان قلبه يعتصر ألما، عجز لسانه عن التعبير، خنقته الدموع:

- وأنت أين أنت؟!

كانت أثار المنشار تشكل دوائر في سطح الجذع والأغصان المصفرة تنام هنا وهناك قرب العين... وقف مخاطبا إياها:

- يا شجرة الأحباب أين أنت؟! أين حبيبتنا؟! ماذا فعلت بكما الأيام؟!

حمل جسمه مسرعا نحو الجامع، حيث كان الشيخ دحمان يستعد للأذان:

- أصدقني القول يا إمام...

- اهدأ يا بني... (ولا تقنطوا من رحمة الله)

- أين أمي؟

- في المستشفى شفاها الله.

- وأين صفية؟

- ابنة بلقاسم في ذمة الله... لقد بلغ أجلها.

- وأين شجرة الصفصاف؟!

- هذا مالا أعرفه...

- وأين أبي، من هو؟!

أطرق الإمام إلى الأرض ببصره قائلا:

- استغفر الله وهذا السؤال لا أعرف جوابه أيضا.

- يجب أن تعرف... إنك إمام... أويعني هذا أنني... ابن...

- هذا ما يقال....

وقف أمامه مواجها وقوفه:

- كذب... افتراء... افتراء.... افتراء إن بعض الظن إثم... إثم... إثم يا شيخ دحمان...

لحق به محمود وهو يسرع خارجا من القرية... اقتحم سياج المقبرة، وأرسل بصره باحثا... باحثا بين القبور... خفق فؤاده.... كان التراب طريا على قبر جديد... قصده

في سرعة قائلا:

- أبـي.. أمـي.. الكـوخ.. الصفـصافة كلـهم رحلـوا، غابوا، وحتى أنت يا حبي الكبير يا أنيسي في وحشتي، ، ، يا معذبة روحي تسافري بعيدا دون وداع، ، ، إلى أين سـألحق بك... سألتحق بك... سأرافقك في طريقك إلى الآخرة...

احتضن سالم القبر بصدره يقبّل الشاهد المركّز وسط القبر، يسقي بدموعه ذرّات التراب في هذيان ومناجاة... لماذا؟ يارب... كيف...؟ صفية أجيبي... أنا سالم...

فشل محمود في محاولة إبعاده عن القبر، تلطّخ وجهه بالتراب الممزوج بالدموع... اشتدّت نوبته الهستيرية... وتشنجت أوصاله...

لماذا لم يخبروني... لأودعك... لتكون نظراتي رفيقا لك في مماتك، ، لأنام في قبرك.. لأنوب عنك يوم الحساب...؟ !

لماذا... لماذا لم يخبروني لأبعث معك رسالة إلى الله.... لماذا؟!

هرع محمود إلى البيت واخبر أباه:

- أبي لقد أغمي على سالم.... إنه يحتضر.

وقف الأب في سرعة آمرا:

- هات المفتاح معك وقليلا من الماء واذهب يا بشير إلى الشيخ دحمان واخبره بالأمر.

أقبل عثمان يستشف الخبر فاتجه الثلاثة نحو المقبرة ولحق بهم بعد حين معمر، كانت الشمس تميل نحو الغروب، ، وسالم ممتد إلى جانب قبر صفية، لم تجد الوسائل المستعملة نفعا في التخفيف عنه...

وبعد نصف ساعة جاء الطفل بشير يحمل الحرز الذي كتبه الشيخ دحمان، علّقوه في عنق سالم وتعاونوا على حمله إلى منزل الشيخ يحيى، كان يطلق من حين لآخر زفرات ممزوجة بالهذيان أمي... أبي... صفية... آه... آه...

قال:

- استغفر الله... يجب علينا أن نتحرك يا جماعة... أترون كيف يتغير لونه وأنفاسه توشك أن تنقطع.

قال معمر:

- ماذا يجب أن نفعل يا عمي يحيى؟

أمر الشيخ يحيي ابنه محمود:

- اذهب إلى بوزيد واطلب منه الحضور بالشاحنة لنقل سالم إلى المستشفى (ثم أردف قائلا):

- الأجرة... كما يشاء لا تناقشه...

خرج محمود قاصدا الدكان في سرعة... مرّت لحظات صمت... وقف الشيخ يحيى وأدخل يده في كيس كبير للملابس وأخرج بطانية رمادية... وضع سالم في كنفها في انتظار حمله إلى الشاحنة... كانت عيناه مركزتين في السقف وأسنانه تصطك كانتفاض الطائر المذبوح...

عاد محمود وعلامة الخيبة تتبعث من عينيه، سأله عثمان في لهفة:

- أين بوزيد والشاحنة؟

أجاب محمود في حسرة:

- لقد رفض قائلا: لو منحتموني نصف الكرة الأرضية لما وضع سالم رجله على الشاحنة لأنه ابن... (وأطرق محمود واجما)

أكمل معمر:

- لأنه ابن بكوشة التي أدخلته المستشفى.

هزّ محمود رأسه نافيا وأردف قائلا:

- يا ليته قال ذلك.. إن طعن اللسان أعمق من طعن السنان.

قال معمر:

- لقد فهمت ما يعني الوغد الحقير لكن لايضير السحاب نباح الكلاب...

وقف عثمان قائلا:

- دقائق وتنتهي المشكلة بإذن الله... انتظروني...

ردّد الجماعة: إنشاء الله

- .....

حضر عثمان بعد برهة من الزمن برفقة حصان واضعا عليه عمودين يشدّان أطراف بطانية صفراء كالمهد...

سأله الشيخ يحيى ماذا تريد يا عثمان أن تفعل؟

- هيا يا عم يحيى ولا تتردّد.... لقد تعلمت هذه الطريقة في الخدمة الوطنية... عندما نفقد سيارة الإسعاف

نلجأ إلى الحيوانات.

حملوا سالم ووضعوه على البطانية فوق الحصان وشدّ عثمان وثاق العمودين مع البردعة فسار الحصان وإلى جانبيه محمود وعثمان تجاه المستشفى بالمدينة، حيث كانت تقيم بكوشة أيامها للعلاج...

۞ ۞ ۞ ۞

ثلاثة أسابيع عاشها بلقاسم بوعكاز وزوجته عزيزة في لوعة وحداد إذ لا يراه نور الشمس خلالها إلا مستلقيا على فراشه مانعا على نفسه الأكل إلا ما يسدّ به رمقه، غلقا وزوجته الباب في وجه كل قادم.. ومع نهاية الأسبوع الرابع بعد دفن صفية خرج بوعكاز فجرا مع صياح الديكة دون أن يعلم زوجته عن قصده... كانت قدماه تحثان الخطى في عجلة إلى أن أشرف على المدينة... استراح قليلا ثم واصل سيره....

دلف مباشرة إلى داخل الباب المفتوح وجد الخفير واقفا يمرّ بالمنشفة على وجهه، هزّ رأسه محييا:

- ماذا تريد في هذا الصباح؟!

- استنشق بوعكاز كثيرا من الهواء ورمى بجسمه على أحد الكراسي قائلا:

- لقد قتلوني... ذبحوني... يا حضرة الشرطي!

- .....

ابنتي صفية...(بكى بحرقة) دفنتها حامل... لقد ضاع شرفي، ، ، مياه البحر لا تكفي لغسل هذا العار... آه... آه... لقد مكثت بعيدا عن البيت...

كانت عند الحاج بوعلام مدّة شهور... وبعد أن أرجعها إلى البيت بالريف تغيّرت أحوالها وبدأت تذبل نضارتها يوما بعد يوم، كنت أظن أنها استهجنت حياة الريف القاسية المعيشة بعد تعودها على الحياة المريحة بالمدينة، التزمت الفراش فاعتقدت أنها مريضة... إلى أن أصبح يوم أسود... انقطع بلقاسم عن الكلام وشهق باكيا:

- مستحيل.... صفية ابنتي.... وحيدتي...

قال الشرطي مهدئا:

- لا بأس ماذا جرى لها ذلك الصباح؟

- وجدتها النسوة عند عين الماء جثة هامدة، قهرتها

آلام الوضع فخرجت من الدار لتموت بعيدا ، بعد أن ماتت المرة الأولى بعيدا... أريد معرفة المجرم؟ من هو الذي فتك بربيع ابنتي؟

دوّن الشرطي شكوى بوعكاز ثم قال:

- هل انتهى كلامك....امضي....

- تذكّرت شيئا لا بد أن أذكره... لا شك أنك تتذكر حادثة بوزيد مع بكوشة...

- نعم... ولو أن التحقيق تمّ عن طريق الدرك...

- في ذلك اليوم جاء أعوان الحاج بجرار أخضر إلى (واستدرك بلقاسم قائلا) الجرار الذي كان يركبه بوزيد أثناء الحادثة جاءوا به وأخفوه وراء بيتي.. إنه قابع هناك منذ شهرين مموها تحت الحشيش... لا أدري لماذا...؟ !

- .....

- أنكم خلفاء الله في الأرض... فانصفونا من الظالمين...

وقف بوعكاز يريد الخروج فاستوقفه الشرطي قائلا:

- بلّغ هذا الخبر الأخير إلى رجال الدرك في الشارع الكبير...

سجل الدركي الخبر الجديد في قضية بوزيد وبكوشة ثم قال لبوعكاز:

- لا شك أنك عائد إلى القرية...

- نعم يا سيدي.

- هل تستطيع أن تبلغ سالم بن بكوشة هذا الاستدعاء...

هل تعرفه؟!

قال في صوت حزين:

- نعم.. نعم إنه خطيب المرحومة.

حاول أن يعيد له الاستدعاء ويقول له:

- لا أستطيع الوقوف أمامه.. لا أريد أن أقابل أحدا من سكان القرية، لكن حياء الكهولة منعه من ذلك فهزّ رأسه في إيجاب وخرج من المقر راجعا إلى القرية...

امتثل سالم للشفاء واعتاد على زيارة أمه في جناح النساء حيث كانت تقيم.... يجلس سالم أمام أمه الساعات الطويلة

obeikandl.com

يناجيها بقلبه فتردّ عليه بابتسامة تفيض حنانا.

- ((مما تعانين يا أماه، ، ، هل حقيقة ما يدّعون؟! لماذا هذا السكوت... والسكوت علامة الرضا... إنهم يلطخون أيامك... شرفك... إن كلامهم سبقني إلى كل مكان، أخبريني يا أماه..

نظراته تخترق الحدود.. تبلغ الآفاق.. تبادله أمه الحديث بالنظرات الصماء.. حدّثه معمر ذات يوم عن قصة أمه مع بوزيد وعن وفاة صفية وإعدام أشجار القرية..

انتهت عطلة الربيع وسالم يستردّ حيويته شيئا فشيئا، ، صمّم قائلا في نفسه:

- لا بدّ أن اكتشف سرّ ما يجري في هذا العالم... لن أعود إلى الدراسة حتى أجد شريفي، سأبحث عن حقيقة أبي...

الألم الدفين يفيض على محياه كلما تذكّر أن أمه تعرف كل شيء عن الماضي ولا تستطيع أن تعلمه عما يسأل عنه، ، ، سأل معمر قائلا:

- ماذا تعرف عن أبي؟

- إن كل ما أعرفه عن أمك... لقد جاءت إلى قريتنا يوما تحملك رضيعا بين يديها، كانت أيام الاستقلال... أيام التضامن... فبنينا لها كوخا، بعدما قدمنا لها اللباس لتغير الثوب الأزرق الذي كان يسترها..

قال سالم:

- لا بد أن أعرف، يجب أن أبدأ من الصفر... من الحقيقة...

- زاره صديقه محمود في المستشفى...

- كيف الحال يا محمود...؟

- بخير، يقال أن ضرر أمي بدأ يزول...

- قال محمود في صوت متهدج:

- هناك أمر... ياسالم... لكني أخشى...

- ما وراءك يا عصام... قل ماذا يحيّرك، ، لا تخش شيئا، إن قلبي ملأته الجراح... عندما يفقد الإنسان كل شيء يصبح شجاعا لأنه لا يخاف من فقدان أي شيء...

سلّمه الاستدعاء:

- اقرأ يا سالم...

تأمله سالم بتمعن ثم قال:

- الخدمة الوطنية... الخدمة الوطنية...

امتلأت عيناه بالدموع واحتضن صديقه محمود... قائلا في زهو:

- إنني موجود... إنني أشغل حيزا في الهواء...

ابتسم محمود قائلا:

لم أكن أتوقع أنك تسرّ بهذا الخبر وأنت مقبل على الامتحان، وأمك في حاجة إلى وقوفك جانباها... أنسيت أن قضيتها في المحكمة...؟!

تغيّرت ملامح سالم منقبضة وقال في إصرار:

- لقد عزمت على التخلي عن كل شيء لأتفرّغ للبحث عن أبي.. سأبحث عن الحقيقة ولو كلفتني بيض الأنوق.

- ودراستك يا سالم.... وأمك؟

تقطب وجهه من جديد وهو يقول:

- لا يهمني أحد غير الحقيقة.

فكرّ محمود مليا ثم قال:

- لكن الحقيقة والواقع هي وجوب اهتمامك

بمستقبلك.

- لقد قررت وانتهى...

- .....

مرت لحظات صمت ثقيلة وقبل أن يودّع محمود سالم قائلا له:

- هناك فكرة... راودتني وأنا في طريقي إليك.. ربما تخفف الثقل عن كاهلك.

أجابه سالم في حسرة:

- مهما تكن هذه الفكرة يا محمود فإنها لن تنطق أمي البكماء ولن تعيد الموتى من تحت التراب.....

- إذا أنت تستخف بأفكاري، ، وبالتالي لا تثق في صداقتي بك..!

- لم أقل هذا يا محمود، ، ، لماذا تعقّد الأمور...؟!

تساءل محمود:

- أنا أعقد الأمور.. أم أنت يا سالم.... إنك في مفترق الطرق الامتحانات.. المرض.. الأم.. الخدمة الوطنية.. الحقيقة الضائعة... هيا معي نبدأ سويا في تعبيد أقصر الطرق لتقف

رجلاك على أرض صلبة...

نظر إليه سالم في إعجاب:

- لم أكن أعرف بأنك فيلسوف يا محمود، ماهي الفكرة؟

صعد موحوش الطابق الثاني من دار العدالة متأبطا كيسا صغيرا.. تصبّب جسمه عرقا وهو يصارع الأدراج ويتحاشى الاصطدام بالشكاة في صعودهم ونزولهم، قال في نفسه:

- رغم أن الساعة لم تتجاوز عقاربها الثامنة والنصف... فالناس مثل النمل في المغارة...

أوقفه الحاجب:

- إلى أين يا سي محمد؟

سأله موحوش مبتسما:

- تعرفني...؟!

ردّ عليه الحاجب في جفاء:

- لا أظن أننا بتنا الليل سويا...

لم يعره موحوش أي اهتمام، دلف إلى رواق الطابق الثالث... شعر بيد غليظة تمسكه بقوة:

- إلى أين...؟! ألا تعرف بأن هذا مكتب النائب العالم وبإمكان صاحبه جعلك تشتاق إلى نور الشمس عدّة أسابيع... أوتظن أنك في إسطبل؟!

- أكيد أنك تعرفني... ولذا أرجوك أن تخلي سبيلي إلى وكيل الدولة...

- عد من حيث أتيت... إن الاستقبال يوم الأحد فقط.

قال موحوش في يأس:

- الأحد... متى يصل ونحن في الإثنين، ، ، أنتم دائما هكذا، أعتى العواصف لا تثير الموج في بحوركم...

قاطعه الحاجب:

- أنت لا تفهم...

نزل موحوش الأدراج وهو يردّد:

- لا تفهم... لا تفهم... كل الناس يقولون لي لا تفهم...

لاتفهم... ما هو الفهم وأين أجده...؟! آه... لا السكير يدري بعار الخمر ولا الصاحي يدري بسلطانها...

توجّه مسرعا نحو مقر الشرطة، خاطب أول شرطي:

- أنا موحوش خادم الحاج بوعلام... لم أكن أودّ العودة إليكم ولكني لم أطق الانتظار حتى يوم الأحد...

- .....

احمّرت وجنتاه وبدأ العرق يتصبب من جبينه ويداه تخرجان من الكيس سكينا... وقال:

- تفضل... هذه الضالة التي بحثتم عنها زمانا فعازكم وجودها.

رفع الشرطي السكين المتآكل الأطراف الذي بدأ الصدأ يغزو جسمه ويفتت جوانبه...

تأمله كثيرا ثم قال:

- ما قصة هذا السكين... وأين وجدته؟!

نظر موحوش خلفه، كان يبحث عن الجواب القائل لهذا السكين مسرحية أسدل عليها الستار منذ زمان... مسرحية أبطالها حقيقيون قبضوا ثمن تمثيلهم منذ أمد بعيد

ما عدا ممثلا واحدا لم ينل أجر دوره فجاء اليوم يطالب حقه، ، وهل يضيع حق وراءه طالب؟!

وجد موحوش كرسيا فترنح إلى الوراء بجسمه النحيف، ثم جلس قائلا:

- وجدته في إسطبل البقرات مخبأ تحت أحد أحواض الماء الأسمنتية، ، لو كنت أدري مكانه لنظّفت هذا المكان منذ الحادث...

اعتدل موحوش قائما وهو يقول في انفعال وغضب:

- هذا السكين الذي فتح أحشاء أبي وصال وجال ثم اختفى... اندفعت دموعه مخترقة كلامه المتقطع... وواصل حديثه بعد هنيهة:

- لقد أغلق ملف القضية ووُضع في الأرشيف بعد انعدام الدليل الذي يثير الشبهات حول مقتل أبي.... عشر سنوات نامت فيها عين العدالة، لكن عدالة السماء التي لاتغفو هاهي توعز إلى ضمائركم من جديد... كما أيقظت ضمير الشاهد الوحيد على الجريمة عاشور.

أراد موحوش الخروج فاستوقفه الشرطي:

- الاسم والعنوان الكامل... أنت والشاهد عاشور.

- محمد السعيد... المدعو موحوش... اسكن في إسطبل البقرات عند الحاج بوعلام ابن القائد... إني أخلف في أبي في عمله... نعم يا سيدي... كان أبي وأصبحت أنا وربما يصير ابني وهكذا دواليك... من يدري؟!

أما الشيخ عاشور فإنه موجود في دار العجزة بعد أن أكل المجرم لحمه ورمى عظمه...

- .....

توقفت سيارة الأجرة أمام الباب الأخضر الكبير للثكنة...

نزل الثلاثة... وتقدم محمود إلى الحارس... لم تكن بكّوشة تعلم قصدهما، تعلّق بصرها بالجندي الحارس الذي كان يحمل بندقية، تمعّنت في لباسه وسلاحه كأنّها تبحث عن شيء معيّن...

ملأ سالم استمارة الاستقبال وقدّمها إلى الجندي الثاني الذي أخذها ودخل البناية الكبيرة بينما عاد محمود إلى سيارة الأجرة وبقي سالم وأمه في انتظار عودة الجندي...

مـرّت دقـائق لم تـشعر بكوشـة بمـا حولهـا، كانـت أفكارها تسبح في مزيج من الواقع والذكريات حتى عاد الجندي من الداخل وأمرهما بإتباعه..

دخل سالم وأمه قاعة واسعة مزيّنة بالصور العسكرية والأعـلام الوطنيـة، سـار الجنـدي في رواق طويـل وطـرق إحدى الأبواب المتراصفة جانبي الرواق...

ثم اتّجه نحوهـما قائلا:

- تعال أنت واترك أمك في الانتظار.

أشار سالم بيده نحو أمه على البقاء في مكانها.

أبهرتـه القاعـة بأثاثهـا وجـدرانها المغلفـة بالجلـد ومفروشاتها الصوفية فاعتراه الخجل أمام الضابط الجالس وراء المكتب العريض.

كان في نهاية العقد الخامس من العمر، واسع الصدر عريض منكبين تتلألأ عليهما الرتبة العسكرية... رفع رأسه آمرا:

- تفضل يا شباب... ما أمرك؟!

رفع رأسه في حياء ثم أخرج الاستدعاء من جيبه وقدّمه

إلى الضابط تأمله الضابط في استغراب، ثم قال في هدوء وعطف صارم كأنه يعرفه من أمد بعيد:

- ماذا... ألا ترغب أن تصبح رجلا يا سالم؟!

- إن أمي بكماء... عاجزة... لا تستطيع العيش بعيدة عني... إنها وحيدة يا سيدي، والرجولة لا تخضع للزمان أوالمكان...

قاطعه الضابط:

- يكفي... إن هذا من باب التهرب من تحمل المسؤولية العظيمة..

- لكن يا سيدي...

ضرب الضابط المكتب بيده قائلا:

إن شباب نوفمبر لم يهتموا بالعواطف... لم ينشغلوا بأمور عائلتهم... لقد كبحوا جماح عواطفهم وأقدموا على الجهاد في غير تردّد...

وقف الضابط مديرا رأسه نحو الجدار، حيث الإطار الزجاجي الذي يحفظ صورة رجلين مسلحين بلباسهما العسكري:

- انظر هذا الشهيد الذي يقف إلى جانبي في الصورة إنّه من أعز رفاقي في الكفاح، التحق بالثوار قبل أن ينتهي شهر العسل تاركا عروسه وأهله...

كانت علامة الخيبة تبدو على سالم وهو يتذكر صديقه محمود قائلا له في نفسه:

- إن فكرتك لم تجد نفعا أيها الفيلسوف العصري.

- كل شيء يكبر ويفنى إلا الوطن يبقى دائما صغيرا يحتاج إلى الرعاية... فلا تبخلوا عليه أيها الشباب بسواعدكم وعرقكم...

قال سالم في رجاء مستعطفا:

- إن أمي ستضيع بلا شك... أرجوك احضرها إلى مكتبك لتتأكد من قولي...

ضغط الضابط على زر الجرس فدخل الجندي ملبيا...

- أحضر العجوز.....

- .....

نزعت بكوشة حذاءها عند عتبة الباب ودخلت حافية القدمين... توقفت في أول خطوة داخل القاعة، كان الضابط

يخط بقلمه على بعض الأوراق، ولما شعر بدخولها رفع رأسه يريد أمرها بالجلوس.. حملق في وجهها وهيئتها طويلا واستقام واقفا، لا يكاد يصدق ضغط بأنامله على جبينه وقال دون شعور فا.. فا.. فاطمة.. يا إلهي...

نظر سالم إلى أطراف القاعة يبحث عن صاحبة الاسم، لم يجد امرأة غير أمه التي كانت واقفة والدموع تخترق ابتسامتها الحزينة...

تقدم الضابط خطوات نحوها، مسكها من ذراعها:

- فاطمة هنا... هل أنا في حلم؟!

وقف سالم مشدوها غير مصدق وقد غلى الدم في عروقه قائلا في نفسه:

- كيف يعرفان بعضهما... هل حقيقة ما ادّعاه الحاج بوعلام...

حاول أن يتصرّف لكنه تردّد، لم يستطع... لقد شغله ما رأى:

الضابط يشير بيده إلى الصورة وهو يقول:

- انظري يا فاطمة هاهي صورة عامر..

ردّد سالم:

- فاطمة... فاطمة...

نزع الضابط الإطار المنسق على الجدار وقدّم الصورة إلى بكوشة التي لثمتها بقبلات حارة ثم ضمتها إلى صدرها ولسانها يردّد:

- ع.. ع.. ععع..... مم..... ععع...

انهمرت الدموع من عينيها وفاضت على وجنتيها وهي تقدّم الصورة إلى سالم مشيرة إلى صورة الرجل المتكئ على البندقية...:

- ع.....س.....عع.....ع

- قال الضابط:

- إنه عامر... أبوك... شهيد بار...

أمسك سالم الصورة بيده متطلعا... أحس بأنها تخاطبه:

- (أنا الحقيقة النائمة.... يا بني)

احتضن سالم أمه ودموع الفرح تنهال من عينيه:

- أمي فاطمة... ما أحلى هذا الاسم... فاطمة، عامر... أبي... أبي معروف شهيد... روحه حية...

تعانق سالم والضابط ثم جلس الثلاثة:

- أكنت تجهل بأنه شهيد... ألم تخبريه يا فاطمة؟

قال سالم:

- وأنت أيضا تجهل يا سيدي بأن فاطمة بكماء صماء.. ألم تكن تعرف هذا؟!

فتح الضابط فاه في اندهاش يعبّر عن جهله بذلك:

- كيف... منذ متى؟! وقد عهدناها فصيحة... ذات صوت جهوري رنّان...

سأل سالم بكلام متهدج:

- صحيح... إن أمي كانت ناطقة؟.... يا لصوت أمي الدفين الذي لم تسمعه أذناي.... إن قلبي يسمعه دائما...

قال الضابط:

- بلا شك أن السبب هو الجرح... المصيبة الكبرى التي كبّلت حبالها الصوتية عندما رأت دماء زوجها تتنزى... إنك لم تجرّب فراق الأحبة... إن فراقهم غربة...

قطر قلب سالم دماء واستيقظت جروح فراق صفية التي لم تندمل بعد... لم يشأ القول... فضّل الصمت... للاستماع

إلى صديق أبيه الذي أردف قائلا وهو ينظر إلى فاطمة البكّوشة في عطف:

- موقف شاق لا تستطيع النفس البشرية تحمّل أرزائه...

بكاء في شهر العسل... ثم فراق تحت أزيز الطائرات وصوت المدافع وانفجار القذائف، ، إنها الحياة... رغم كل شيء...

كان محمود عند باب الثكنة ينتظر، وبعد حين خرج الضابط من البناية يتقدم سالم وأمه ودعاهما لركوب سيارته... أقبل سالم نحو محمود والفرحة تفيض من عينيه:

- وجدتها... وجدتها يا صديقي...

- ماذا وجدت يا سالم... أخبرني؟

- ستعرف كل شيء... ستعرف يا محمود.

قال ذلك ورجع إلى السيارة حيث اتّجهت به وأمه نحو منزل الضابط.....

أقبل موسم الحج إلى البقاع المقدسة فبادر الحاج بوعلام إلى إقامة حفل الوداع بالقرية قبل ذهابه مرّة ثانية... غصّت ساحة القرية بالفلاحين من سكان القرية وضواحيها جاؤوا على بكرة أبيهم من كل حدب وصوب... ارتدى الأطفال ملابسهم النظيفة، حبس الرعاة قطعان المواشي في سفح المرتفع لا يريدون الابتعاد عن القرية وهم يعلمون أن الحفل سيكون بهيجا....

تناول الحاضرون الحديث في شتى مجاريه.... يتندرون بهمومهم لينسوا واقعهم... كثيرا ما توقفوا عن الكلام لسماع قويدر خادم الحاج وهو يرقص بين الحاضرين مردّدا:

- (حفلة الوداع... الطعام بالدّلاع)

(شباب ورضاع..... قولوا تسقط الميزيرية)

زاد في حماسه التصفيق والأصوات المتعالية هاتفة:

- ... تحيا يا قويدر..... تحيا يا قويدر...

اجتمع الأطفال حوله وحاصروه في دائر ة مغلقة مردّدين جماعيا:

- (قويدر متى تتزوج... قويدر مالك تتعوج... قويدر...)

كان يكر وراء الأطفال مهدّدا في طرب، مقسما باسم الحاج:

- سأمنعكم من الأكل وحق عمي بوحجتين... إن لم تقولوا يحيا قويدر، ويرتفع صوت الهتاف بينما يواصل قويدر مواله الغنائي:

- (سبعة كباش.. أربعة لنا.. وثلاثة للأوباش.. يا.. يا... ياي...).

حان وقت الأكل فشكّل الحاضرون حلقات منفصلة لاستقبال جفان الطعام التي كانت على موعد مع أمعائهم منذ أسبوعين...

أقبلت الجفان المملوءة بالطعام من دار الحاج، القروية محمولة على الرؤوس تباعا...

هفت إليها النفوس واشرأبت الأعناق تعيّن الجفان ذات القطع الكبيرة من اللحم...

انقضّت كل حلقة على جفنتها كجوارح الطير، واشتغل كل فرد بملء وعائه في صمت... وانكبّ الرعاة على الجفان يلتهمون الأكل في نهم وأعينهم تحرس المواشي من بعيد...

أحست الأعصاب باستقرار الأكل في المعدة فهدأت بعد أن وتّرها الجوع، وصار التفكير متفتحا على التندر الساذج البريء...

خاطب عثمان الشيخ حمزة الذي ينفصل عنه بثلاث حلقات من المجالس وثلاثة عقود من العمر:

- هل من تنبؤ جديد... ياعمّ حمزة؟!

أدخل الشيخ حمزة ذو اللحية الكثيفة ملعقة من الطعام في جوفه ثم قال:

- لا كلام على الطعام ياسي عثمان.

وبلع لقمة أكبر حجما من سابقتها، ثم نظر إلى عثمان الذي كان ينظر فيه منتظرا الإجابة عن سؤاله وقال له:

- اسمع هذه البشرى... هذا عام الخير... لكل من يعمل عند الغير... كالحاج بوعلام وسي الزبير...

(هتف بعض الحاضرين عند ذكر اسم الحاج قائلين:

- أطال الله في عمره).

قال له سليمان:

- كنت أظنك عاجزا عن المشي يا عمي حمزة

وإذا بي أراك اليوم تقطع مسافة طويلة راجلا...

أبعد الشيخ حمزة قطعة العظم عن شفتيه الدسمتين وقال متهكما:

- سي أمحمد الذيب يسير شهرا من أجل بطنه فكيف لا أقطع مسافة قصيرة من أجل حفل بهيج وأكل مجاني وخاصة عند الحاج بوعلام...

وقف أحد الجالسين وصرخ مشيرا نحو المرتفع:

- الذئب... الذئب والخرفان يا رعاة... أين الكلاب؟!

توقف الرعاة عن الأكل وهرعوا وهم ينادون على الكلاب التي تنتظر ما يلقى من أفواه الأطفال...

وتوقف الحاضرون عن تناول الطعام إذ شدّ انتباههم حركات الذئب الذي راع الغنم وأفزعها بهجومه المفاجئ، ، ، أخذ يعانق الخرفان الواحد تلو الآخر بحرية لا مثيل لها... وقبل أن يبدأ في افتراسها اقترب منه الرعاة وكلابهم كأنها مسعورة تسبقهم بنباحها الشديد الذي كان يصمي الآذان...

رفع رأسه عن بطن الخروف يتطلّع الخبر.. كانت المواجهة محتومة... فاختار الهروب بعيدا، ، واختفى

جاريا وسط الأحراش...

عاد الناس إلى الأكل... فعلا الساحة اللغط والكلام..

قال البعض:

- الذئب خدّاع...

وقال أحدهم عن الرعاة:

- (على كرشو خلا عرشو)

بينما قال الشيخ حمزة مبتسما:

- لقد قام الذئب بمعركة وخرج منها خاسرا.

قال عثمان في قهقهة:

- كانت المقابلة متعادلة.

وعادت الجفان شبه فارغة إلى المنزل ذي القرميد المعصفر...

❁ ❁ ❁ ❁

استوى الضابط على الأريكة ونظر بعيدا... بعيدا... اخترق بصره زجاج النوافذ... إغرورقت عيناه بالدموع... فكّر في الامتناع عن إعادة الذكريات التي عاشها أيام الثورة

مـع عـامر والـد سـالم، خـشي أن لا يتجلّـد صـبره فينهـار كبرياؤه الـذي صنعته أيام العسكرية... مـرّت لحظـات رآهـا سـالم دهـرا... جـاءت زوجتـه بفنـاجين القهـوة ووزعتهـا علـى الحاضرين...

ارتشف الضابط رشفة من القهوة وقال لسالم:

- (إنها أيام الثورة التي عرّفتنا بأنبل الرجال وأخلصهم أيام العسرة، كان أبوك عامر شابا أمينا، رفيقي وصديقي المقـرّب... أطلعـه علـى أسـراري ويبـادلني الفعـل... عرفـت منـه كل شيء عن حياته قبل التحاقه بصفوف المجاهدين...

كان يعيش مع أمه حليمة، فقد أباه في حوادث 8 مـاي وهو في العاشرة من عمره... ومساء يوم أسود، وبعد إغـارة للعدو على المناطق الجبلية والثورة في عامها الثاني جلست أمه حليمة تفحص المكان حولها بعينين زائغتين، كانت تبحث بدقّة وتبصر عن شيء، عن كل شيء لم يبق سوى الدخان المتصاعد هنا وهناك تلعب به يد الرياح الشمالية الضعيفة، التي توهج النار في بقايا أعمدة فاحمة السواد وسط أكوام من الرماد يحيط بها سور مهدم تظهر فيه الحجارة ملفوفة بتراب ذي لون برتقالي انصهرت جدرانه تحت جحيم القنابل..

كانت جدتك يومئذ في الخمسين من العمر تحتفظ بمسحة من الشباب الآفل، تبدو على جبينها قسمات خطّطها الزمن، أضفت عليها الهيبة والوقار... لم تصدّق بصرها، أذهلتها النكبة، تجولت حول الحطام وهي تحدّث نفسها:

- هل اختفى كل شيء حقيقة.. كيف حدث هذا كله، في نصف ساعة يتحول كل ما بنيناه في سنين إلى هباء منثور... لا... لا يمكن أن يحترق هكذا، المنزل الذي رأيت فيه أجمل أيام حياتي.. الذي ترعرع فيه ولدي عامر.. رفعت رجلها لا إراديا إثر وطأتها جمرة مموهة بالرماد، تطلعت بعينيها إلى السماء، انسكبت من مآقيها دمعتان حارتان وجرت على خديها المتوردتين... الوقت عصرا والشمس تشرف على المرتفع الذي حظي بتقبيلها عند الشروق والغروب، التفتت حليمة خلفها لتبتعد خطوات عديدة عن البيت المحترق وجلست على التل الذي يطل على منحدر في الجهة الخلفية المقابلة لقمة الشريعة...

أرسلت بصرها إلى أسفل المرتفع وهي تنادي ابنها بصوت متقطع:

- عامر... عامر...

اهتزت بعض الشجيرات الصغيرة في دلال وخرج من بينها أبوك عامر... أقبل يحث الخطى صوب أمه وهي تجلس في هدوء تام، لا يتحرك من جسمها إلا الأهداب، التي تعلن انسحاب عبرات وآهات مليئة بالحسرة، التي ولّدها الفزع والرعب منذ أن علموا خبر سكان الدشرة المجاورة الذين تعرضوا لغارات الطائرات الفرنسية التي دكّت بيوتهم على رؤوسهم دكًّا، وحولتها بين عشية وضحاها إلى مقبرة من الأشلاء المنثورة، كأنه يوم الحشر، ، ، واليوم حان دور النواحي المجاورة ليكتمل العدد والعدد لا يكتمل، والأيام تتبعها الأيام، والمستعمر يقصف كل يوم المساكن خارج القرية.. وفي هذا الصباح غادر السكان بيوتهم ناجين بأنفسهم من المصير المحتوم، ترك عامر وأمه البيت وافترقا هاربين، كل يبحث عن مخبأ يأويه وأزيز الطائرات المحلقة في السماء يصمي الآذان... ترسل نارها الجهنمية على كل بيت، على كل ماشية، تنتقم من كل غصن يحرّكه النسيم...

وقف عامر بقامته الطويلة وسمرته، استقبله وجه أمه الشاحب الحزين فساوره الريب، لم يكن يعلم أن أعمدة بيته صارت رمادا، ، ،

سأل أمه في لهفة:

- هل أنت بخير.... كيف حال بيتنا؟

حاولت أن تجيبه ثم ارتدّت قائلة في نفسها:

- (لا أقول.. لا أستطيع تحطيم أماله التي أشرفت على التحقيق).

أيام وأيام قضاها عامر في جمع الحجارة والأعمدة لبناء بيت خاص له، كلّ ما يملك وأمه بقرتين، نوى على بيع إحداهما، لتسديد تكاليف الزواج بخطيبته فاطمة... لم يبق سوى شهر واحد فقط يفصله عن موعد الزّفاف...

حاولت حليمة الكلام مرّة ثانية، لكن عاقتها عن ذلك الغصة التي اعترضت صوتها المبلّل بالدموع، بدأت قطرات العرق تتصبّب من جبين عامر، لم يطق صبرا، توجّه مسرعا يتخطى الربوة، يستشف خبر البيت... لم يكن يتوقع ولم يخطر بباله ما رأى...:

أكوام من الرماد وجمرات متوهجة توهج الاحتراق في أحشائه، الأنين يصدر من إحدى البقرتين التي كانت في النزع الأخير مع الموت البطيء، كان بطنها مشققا شقوقا

برز اللحم منها قطعا.. قطعا.. وآثار الحروق على ظهرها، وعيناها تنظران نحو أختها الجثة الهامدة والدم القاني يسيل من أنفها.... ألسنة النار تلهب جذع الزيتونة الكبيرة التي غرسها جدّه، كم تظلّل تحت أفيائها عامر، ، ،

أحسّ عامر بقلبه يدقّ دقات كادت تخترق صدره، دقّات متلاحقة تلاحق القنابل التي كان يسمع انفجارها يدوي في الأجواء ويزلزل الجبال، ، ، لم تعد رجلاه تقويان على حمله، أحسّ برعشة كبرى تعمّ جسمه، تلاشت صور المناظر أمام عينيه، الأرض تدور وذرّات الرماد تتطاير. وعادت الطائرات إلى تحليقها ورمي قذائفها، ، ولم تغادر المنطقة إلا بعد أن ظهر الشفق الأحمر على جبين الناحية الغربية...

❁ ❁ ❁ ❁

المصلون يخرجون من الجامع تباعا بعد أداء صلاة العشاء، ، ، يستغفرون ويحولقون.... الإيمان ينير عقولهم، وضياء البدر يضيء الطريق إلى بيوتهم... تخلّف الإمام سي صالح ليغلق الباب...

الجامع المبني بالحجارة والطين لا يعرف بابه القفل، كان ملجأ لكل عابر سبيل ليلا نهارا... يلتقي فيه الصبيان يوميا لحفظ القرآن الكريم... فصار مقر عبادة واجتماعات ومدرسة... وبيت سبيل.

ابتعد المصلون عن الجامع زمرا ووحدانا، وقف الشيخ الطاهر والد فاطمة الذي لم ينته آنذاك من مرحلة الكهولة، إنّما حتّه على الاهتمام بأمور الدين ملكه لقب الشيخ... وقف منتظرا سي صالح إمام الجامع... بادره الإمام:

- تقبل الله صلاتك يا شيخ.

- من الجميع.. آمين...

سار الاثنان صامتين وبدون مقدمات قال الشيخ الطاهر:

- في الحقيقة... ما على الرسول إلا البلاغ المبين، ، ، لايستحي ولا يخاف..

قاطعه سي صالح:

- لا.... إلاّ الكلمتان الأخيرتان ليستا بقرآن... حذار من النار يا شيخ... هات ما عندك.

انتفخت أسارير الشيخ الطاهر عن ابتسامة عريضة

ونظر نحو الإمام قائلا:

- استغفر الله... استغفر الله... المهم أنك مدعو الليلة لبيتي الساعة العاشرة...

قال صالح مبتهجا:

- كل شيء مبارك...

أظن أنها مناسبة قراءة الفاتحة بين عامر وفاطمة.

رد عليه الطاهر في حماس:

- تقرأ الفاتحة للوطن... مع إخوان الجبهة...

- .....

- لا تتأخر... الساعة العاشرة.

❁ ❁ ❁ ❁

أشارت عقارب الساعة الحائطية في بيت الضابط إلى منتصف النهار.. فتوقف عن سرد بقية القصة.. ودعا سالم وأمه لتناول طعام الغذاء..

قال سالم:

- لست في حاجة إلى الأكل يا عم إني أريد بقية

المعلومات... أريد أن أعرف كل شيء عن أبي وأمي...

أصرّ الضابط على تناول الغذاء فانتقل الجميع إلى غرفة الأكل الواسعة، حيث كانت سعاد ترتب صحون الأكل على المائدة...

قال الضابط في اعتزاز:

- سعاد، ابنتي ملكة جوائز الثانوية وأميرة البيت...

ابتسم سالم محييا في مصافحة سريعة بينما قبّلت بكوشة وجنتيها المتوردتين...

التقت النظرات وافترقت في احتشام، ، ، كان سالم ينظر نحو سعاد من حين لآخر يلبسها طيف صفية الذي زاره ممتثلا أمامه طول مدة الغذاء...

۞ ۞ ۞ ۞

عاد الجميع إلى جلستهم بعد الانتهاء من الأكل، أشعل الضابط سيجارة وواصل سرد بقية قصة والد سالم...:

((الساعة العاشرة ليلا، البيت واسع ومفروش، تتوسّطه ركيزة خشبية غليظة، تحمل على عاتقها أعمدة السقف،

السراج الضئيل معلّق على جانبها، تحوم حوله فراشة لا تعلم مصيرها...

صفان متقابلان من الرجال يتّكئون على الحائط الطيني، تكدّس الأثاث في نهاية البيت، ، مخبأ القمح كالبرميل عليه قدران من الطين، يأخذ حيزا من المكان قرب الباب الذي يخفي وراءه حبلين يعلقان شكوة اللبن إلى وتد مركز في وسط الحائط، قطرات بيضاء تقطر في كل دقيقة أسفل الشكوة على إناء صغير...

الحيرة تبدو جليّة على محيا الشيخ الطاهر صاحب البيت، غادر الجلسة عدّة مرات ليسأل فاطمة (نظر الضابط إلى فاطمة البكوشة التي كانت تتابع كلامه وحركاته في صمت...)

وأردف ليسألها عن تحضير العشاء أولينتظر خارج البيت قدوم سي صالح...

تطلّع الحاضرون من سكان القرية إلى المجاهدين الأربعة الذين كانوا يتصدرون البيت، واضعين أمامهم أسلحتهم... قال أحدهم:

- إن الساعة العاشرة والنصف...

- هل أنت متأكد أنه فهم ما قلت له؟

رفع الشيخ الطاهر رأسه بعد إطراق قائلا:

- كل التأكيد... وعهدي به الوفاء بالوعد...

ثم أردف قائلا بعد صمت قصير:

- هل تفضلون أن أذهب إلى بيته استفسر عن تأخره أم أقدّم لكم العشاء؟

صمت الحاضرون يفكّرون في الأمر، ثم قام من بين القرويين رجل قصير القامة ذو شارب طويل، نظر حوله مليا ثم قال للشيخ الطاهر:

- أنا الذي أذهب إلى دار الإمام سي صالح وأنت تقدّم العشاء للضيوف.

تقدّم الشيخ الطاهر منه هامسا في أذنه:

- الحارس بالباب ولا يسمح لك بالمرور إلا إذا...

سأله بكلام خافت:

- إلاّ إذا ماذا؟!

- إلاّ إذا ذكرت له كلمة السر... ولكني لا أبوح

بها إلا إذا أقسمت بأنك لا تذكرها لغير الحارس...

مدّ له مزيان يده معاهدا على حفظ السر... سائلا:

- قل وسرك في بئر...

- كلمة السر هي: (الإسلام ديني والجزائر وطني)..

وأردف الشيخ الطاهر في صوت مسموع:

- هيا توكل على الله يا مزيان...

قدّم صاحب الدار جفنة من الطعام عليها قطع من اللحم في وضع مستدير وصبّ اللبن من الشكوة في إناء طيني وانفجرت شفتاه عن ابتسامة عريضة وهو يقول:

- تفضلوا... بسم الله.

- ألحّ الشاب الأسمر على أعيان القرية الذين امتنعوا عن الأكل في البداية ثم أذعنوا لطلبه غير متردّدين.

عاد مزيان بعد برهة من الزمن قائلا عند عتبة الباب:

- الدار خالية... حتى أطفاله وزوجته لا يوجدون في البيت...

رفعت الأيدي عن الطعام وجاء الشيخ الطاهر بإبريق الشاي، ، ، ثم خرج بنفسه قاصدا بيت سي صالح يستطلع

الخبر... وبعد نصف ساعة عاد رفقة سي صالح الذي كان يلهث تعبا... اعتذر عن تأخره مقدما سبب غيابه بكلمات متقطعة حزينة...

قاطعه الشيخ الطاهر:

- مجرمين... يريدون القضاء على كل جزائري...

بينما تدخل مزيان:

- أصبر ياسي صالح... غدا يظهر عامر وأمه إن كانا على قيد الحياة إن شاء الله...

وأردف الشيخ الطاهر:

- إني كنت على يقين بأن غيابك اضطراري...

كانت الفرصة الملائمة لفتح الموضوع ليقول أحد المجاهدين الأربعة في نبرة جادة، أخذت ألباب الحاضرين الذين صمتوا في إصغاء تام:

- هذا هدفهم... الأرض والحياة لهم والعذاب والموت والتشرد لنا، كل يوم يقطفون ثمار أرضنا الطيبة المسقيّة بدماء الشهداء ويقدمونها على موائدهم مبللة بعرق الجائعين في جزائرنا الحبيبة الطاهرة التي دنّستها أقدامهم الساحقة...

كلابهم المسعورة التي تنطلق من الثكنات مسدّدة السلاح في صدور أبناء شعبنا الكريم...

نطق زميله الثاني قائلا:

- يريدون القضاء على الثورة في مهدها بالدعايات المغرضة وبزرع الفتن والانقسام بين شعبنا الأبي ذي الجذور العريقة والإيمان العميق، ، إن مبادئنا أسمى من أن تصل إليها أيدي الأعداء الآثمة...

واصل الشاب الأسمر كلام زميله قائلا:

- إن إرادة الشعوب لا تقهر... وإنّ إيمان شعبنا بقضيته الشرعية أقوى وأشد من رشاشات ومدافع العدو... وسنلقن هذا التلميذ البليد درسا يذكّره بالهند الصينية...

كانت الرؤوس تتحرك في إيجاب، تطلب المزيد من المنهل الفياض بالروح الوطنية، وكان الأخضر يردّ على أسئلة الحاضرين ويداه تتحركان يمينا وشمالا في توضيح أكثر وعيناه تنتقلان من شخص لآخر...

صمت يتأمّل وقع كلامه على نفس الحاضرين... ثم أشار إلى رفيقه الثالث قائلا:

- تفضل يا سي علال...

نظر بعينين هادئتين إلى الجميع وبدأ حديثه بنفس طويل... قائلا:

- الداء الخبيث ينشر جراثيمه في أوصال شعبنا وأصالته، إن الاستعمار أصم عن أي لغة ولا يستجيب إلاّ للغة الحديد والنار، وكل ما أخذ بالقوة لا يستردّ إلاّ بالقوّة...

تدخّل سي صالح قائلا:

- إذا كان البقاء للأقوى فنحن أشدّ قوّة وتسلّحا بالإيمان بمبادئنا المقدّسة...

سأل مزيان المجاهدين:

- هل لنا أعمال نقوم بها في هذا الشأن؟

أجابه علاّل على الفور:

- هذا ما قدمنا لأجله...

تطلّع الحاضرون إليه وعيونهم تستطلع الأوامر:

- همزة الوصل بيننا هو الشيخ الطاهر، يبلّغكم الأوامر ويجمع الإعانات من السكان، وأنت يامزيان تتكلف بجمع الأسلحة، واختيار الشباب القادرين

على التجنيد.

سكت قليلا ثم أردف قائلا:

- وليختر الجماعة من بينهم دليلا يتّصل بالمشاتي المجاورة في كل أمر...

رفع سي صالح يده قائلا:

- أنا أتطوع لهذا الدور...

أوقفه المجاهد الرابع بإشارة خفيفة من يده:

- إن الدين عقيدة والوطن ميراث وكلاهما أمانة عظيمة، ، والسلاح الحديدي لا يكفي لحمايتهما، ونجاح أي ثورة يتوقف على إيمان شعبها وتشبّعه بقيمها ومبادئها وهذا دور رجال العلم في الجوامع والمساجد والزوايا...

قال الشاب الأسمر:

- مهمّتك ياسي صالح هي تحفيظ القرآن للصبيان وبث في نفوسهم معاني: الإسلام ديني والجزائر وطني والعربية لغتي...

فهزّ سي صالح رأسه راضيا بنصيبه... تأمّل الحاضرون بعضهم بعضا، ثم وقف المجاهدون قائلين في صوت جماعي:

- تحيا الجزائر...

ردّد الحاضرون من القرويين بعدهم:

- تحيا الجزائر...

خرج المجاهدون مودّعين الشيخ الطاهر الواحد تلو الآخر...

بينما بقي سكان القرية صامتين ينظرون بعضهم بعضا وكأن على رؤوسهم الطير...

قال أحدهم في صوت منخفض:

- أن الأمر صعب... وإني أشك... (صمت قليلا... فاستعجله سي صالح)

- تشك في ماذا يا عليوات؟!

- أشك في صحة ما يزعم هؤلاء العزل الذين يحاولون طرد فرنسا صاحبة الأسلحة والجنود المدربين والطائرات... هل يحاربونها ببنادق الصيد، التي تعجز بعض الأحيان عن قنص أرنب...

قال سي صالح:

- ويل للشعر من راوية السوء...

وهمس الشيخ الطاهر في أذن عليوات:

- إن البندقية التي تعجز عن قنص أرنب في بعض الأحيان تستطيع قتل الذئاب مرّات كثيرة...

التفت عليوات نحوه قائلا في صوت مسموع وهو ينصرف:

- لا تذكرني بالذئاب إني صرت أخشاها كثيرا... كل ما يكبر في سنة من المواشي تقضي عليه الذئاب في ليلة واحدة... تصبحون على خير...

- مع السلامة... ثم استدرك الشيخ الطاهر عليوات وأمسكه من ذراعه قائلا:

- يجب أن يبقى سر جلستنا هذه الليلة محفوظا...

تدخّل سي صالح قائلا:

- أقضوا حوائجكم بالكتمان...

نظر عليوات نحوهما نظرة جانبية لم يفهما معناها وخرج مغادرا البيت... وشيع الشيخ الطاهر ضيوفه من سكان القرية الواحد تلو الآخر ثم عاد إلى بيته...

الوقت بعد منتصف الليل والقمر على وشك الأفول، السكون يعمّ الواد الذي أيقظته حركات المجاهدين الأربعة العائدين إلى مركزهم، كانت الطريق تتطوي تحت خطاهم بهشيمها وحصاها الذي يصدر تحت أقدامهم أصواتا متقطعة على وتيرة واحدة تعودت عليها الأرجل واستحسنتها الحواس...

وقف الجميع بغتة ونظروا فيما بينهم، ثم قال الشاب الأسمر:

- النور وسط أحراش الغابة.

ثم أردف متسائلا:

- في هذا الوقت من الليل ينبعث هذا القبس من النور بين الأدغال؟!

قال علاّل:

- ربما تكون نارا أضرمها الرعاة في شجرة يابسة أوبقايا حريق أحدثته قذيفة من العدو...

قال الزبير:

- هل تدعو هذه الظاهرة إلى الاهتمام بها...؟

لحظات صمت مرّت قطعها أحدهم بقوله:

- يجب علينا أن نعرف الحقيقة... ما رأيكم يا إخوان؟

وافق الكل على اقتراحه وتحركوا مسرعين في حذر نحو مصدر النور الضئيل، المنبعث في وحشة المكان الخالي، الذي يبيت الليل كلّه مسرحا للحيوانات الضارية تمثّل فيه روايات قانون الغاب...

تقدّم الشاب الأسمر ورفقاؤه محاصرين المكان تسبقهم فوهات بنادقهم في ترصد واستطلاع... فاجأهم وجود قبور قديمة بين الأشجار عليها أحجار شاهدة مع مرور السنين... تبيّن لهم أن النور يصدر من كوخ قديم تكتنفه مقبرة عتيقة...

سأل كل واحد نفسه:

- من أنار هذا المكان الغريب؟! وهل بداخله مخلوق؟!

تقدّم الشاب الأسمر من الكوخ في حذر وترقّب شديدين، جلس القرفصاء على بعد أمتار من باب الكوخ.... استمدّ البصر من نور الشمعة المركّزة على الجدار، تراءى له شبح إنسان... تقدّم خطوتين... كاد يصرخ صرخة يوقظ

بها ساكني تلك القبور ولكنّه كتمها لضرورة لا يدريها، فتحولت إلى حديث يناجي به نفسه متسائلا:

- (شخص يمتد على أرض الكوخ كأنه في سبات عميق... أه... يتوسد ركبة امرأة عارية الرأس، خصلات شعرها تتدلى على وجهها المنكب فوق الشخص الممتد أمامها... إنها تبكيه في حرقة شديدة.. تحترق احتراق الشمعة التي تشهد هذا المنظر المريع...)

عاد الشاب الأسمر إلى رفقائه وتجمعوا بعيدا عن الكوخ... قص عليهم ما شاهده داخل الكوخ... وكلّف اثنين من رفقائه بالعودة إلى القرية.

وبقي هو والزبير ينتظران عودتهما من القرية، حيث قاما بمهمة إخبار الشيخ الطاهر بوجود العجوز حليمة وابنها عامر)).

❁ ❁ ❁ ❁

سأل سالم الضابط قائلا:

- هل تعرف اسم الشاب الأسمر؟

ابتسم الضابط ضاحكا:

- وهل يوجد من لا يعرف اسمه؟!

- إذا أنت الشاب الأسمر...!

ردّ عليه الضابط في اعتزاز:

- نعم... أنا الشاب الأسمر... المسمى الأخضر...

قاطعته ابنته سعاد:

- لكني أراك أسمر وليس شابا...

ضحك الجميع في هدوء وواصل الضابط الأخضر حديثه حول عامر والد سالم...

- وقف الشيخ الطاهر قائلا:

- إنّه عامر وأمه... خطيب ابنتي... كيف حالهما؟

- في عالم الأرواح

- إذن أصابتهما الإغارة؟!

- بل أصابتهما الأقدار....

توجّه الشيخ الطاهر ونفر من جيرانه إلى مقبرة سيدي المخفي وباتوا الليلة مع عامر وأمّه يخففون عنهما وطأة

النكبة... حتى جاء الصبح وأفاق عامر من غيبوبته... ساعده الكل على المشي اتجاه القرية... استقر وأمه في بيت قريبهما سي صالح، حيث استعاد بعد أيام حيويته ونشاطه، فراودته فكرة الزواج وأقرّ بها إلى سي صالح الذي انتقل إلى الشيخ الطاهر للاتفاق على بعض الشروط وتحديد يوم العرس...

وكان ما أراد، تزوج أبوك عامر وأمك فاطمة بحضور سكان القرية...

كان عامر يسأل الشيخ الطاهر من حين لآخر عن الملائكة...

فيجيبه صهره الشيخ الطاهر:

- سيعودون... سيعودون

لم تكن عين الأقدار غافلة... فقد خطفت يد المنون حليمة أم عامر ويداها مخضبتان بحنّة زفاف ابنها...

حزن عامر لفقد أمه... لفقد أعز الناس لديه في أجمل أيام حياته... لم تكن فاجعة فقدان أمه أقل وقعا على نفسية عروسه فاطمة منه، ، ، ومع ذلك لم تدخر جهدا في محاولة نزع اللباس الأسود الذي كسا وجه عريسها وملامحه...

- إنها سنة سوداء يا فاطمة.

تنظر نحوه فاطمة والحزن يسكن أحداق عينيها:

- ألست القائل بأنها من بيض السنين؟!

- امتزج السواد بالبياض فغلب السواد... كانت للغراب... للّيل على النهار....

- .....

- فقدت الأم الحنون...متى؟ في شهر العسل!!

- وتريد فقد نفسك بهذا التفكير...، ، ،

- .....

- إنها الحكمة الإلهية يا عامر... أخذت المرحومة بعد أن منحتك ما تريد...

إذا كان الماضي قريب لكن المستقبل أقرب... لا يجب أن تركن إلى الماضي... وأنت تعلم أن الموت حق وأنه الجسر الذي يربط الحياتين...

جاء الشيخ الطاهر وسلّم عليهما قائلا:

- إن الملائكة يطلبونك يا عامر.

وقف عامر متردّدا :

- الملائكة؟... ماذا يريدون؟!

- ألم تسأل عنهم؟ عن الأربعة الذين وجدوك وأمك في مقبرة سيدي المخفي ليلا؟

تذكّر عامر، فقال:

- آه... بلى.

- إن ملائكة الأرض يرومون الاطمئنان على حالتك... هلا رافقتني إلى بيتي إنهم في ضيافتي، عرف عامر في تلك الليلة سرّ الملائكة، تذكّر بيته القديم والنار المشتعلة، ، ، ، وأنين بقرته تحت شجرة الزيتون المحروقة... تحرّك في أعماقه نداء الواجب... عرف طريق الملائكة، فقرر في نفسه اللحاق بهم...

واعترف لفاطمة وأبيها بما يكمن في نفسه، فبارك الشيخ الطاهر موقفه، ولم تمانع فاطمة ولو أن دموعها كانت تومض أسفا...

التحق أبوك عامر بالثوّار وبقيت عروسه فاطمة عند أبيها الشيخ الطاهر تنتظر عودته من يوم لآخر... وعاد بعد

شهر ليجدها تنتظره في شوق ملتهب... حدّثها بمهمّته في الجهاد وبحالته في الجبال... فشقّ عليها فراقه مرّة أخرى وطلبت منه مرافقته إلى الجبل...

- .....

قال لها وهما على سفح الجبل:

- هناك على قمة الجبل تلتقي الملائكة... ملائكة السماء وملائكة الأرض يتحاورون في أمر الحياة.

سألت فاطمة في زهو غرير:

- هل تقبل الملائكة الاختلاط بنا نحن بني الإنسان...

- الملائكة لا تنظر إلى الأصول.. إن مقياسها هو الأفعال.

سألته زوجته في سذاجة:

- ماذا تفعل الملائكة؟!

- ملائكة الأرض تحارب الشياطين وملائكة السماء تنشر عليهم أوسمة الشهادة.

- وما مهمتي بالذات؟

- تكونين رسولا بين الأرض والسماء، تجلبين

الرحمة فتوزّعينها على قلوب الجرحى لتلتئم جراحهم وتسقين الضمآى فيرتوون إيمانا....

- إذا... إنّ ملائكة الأرض هم المجاهدون....

ردّ عليها زوجها عامر:

- نعم... (وقال في إعجاب)... يا للذكاء الخارق...

- .....

توقف الضابط الأخضر عن الحديث ليشعل سيجارة أخرى كانت بين إصبعيه، ، امتدّت نظراته المنسرحة تستكشف الأحداث من خلال خيوط الدخان المتعالية، ، ، رجع بذاكرته إلى الماضي يسرد بقية القصة في حسرة عميقة:

- وجاءت الليلة الأخيرة.. لم يكن صبحها كالعادة.. كنا داخل المخبأ نخطّط ونستعدّ لهجوم على مركز العدو لتهريب ثلاثة معتقلين... لم يبق سوى تحديد الزمن... حتى أرسل الصبح تباشيره على أنغام الرشاشات ودوي المدافع.. القنابل تنفجر والنار تشتعل هنا وهناك على السفح الذي كان يبدو كجسم شهيد تتنزى منه الدماء القانية في كل عضو.

عددنا قليل والعدو يتقدم نحونا ، مكثنا في المخبأ ننتظر انسحابه لكنّنا تأكدنا بعد ذلك بأنه يقصدنا ولانجاة في البقاء... الوقت يمرّ وشبه دائرة الحصار تزداد ضيقا...

المخبأ يطلّ على البسيطة بمخرجين أولها وسط الغابة في مواجهة العدو والثاني يتوسط صخور هاوية مطلّة على (واد الآخرة) المؤدي إلى المقطع الأزرق وحمام ملوان... مواجهة العدو من المخرج الأول مغامرة خطيرة...

قاطعه سالم:

- عفوا... كم كان عددكم؟

- عشرة بالإضافة إلى أبيك وأمك...

انقبضت ملامح وجهه وسأل الضابط الأخضر قائلا:

- ثم ماذا فعلتم يا عمي الأخضر...؟

تأمل الضابط الأخضر سالما مليا ثم قال:

- عمي الأخضر... يا له من نداء رائع...

ثم واصل حديثه قائلا:

- الرجل بعقله والأسد بعضلاته... لقد آثرنا المخرج

الثاني المطل على الواد ، حيث ارتمينا من العلو... (وقال في حسرة) ما عدا عامر وفاطمة. ترجرجت الدموع في عيني سالم وسأل في حيرة غاضبة:

- بقيا وحدهما...؟!

- كنا ننتظر ارتماءهما معا... لكنهما تردّدا بعد أن عجزت أمك عن الارتماء بسببك.

- بسببي أنا...؟!

- كانت حاملا... هذا ما أخبرنا به أبوك من العلو ونحن في الواد ، ربت الضابط الأخضر بيده على ظهر سالم قائلا:

- إن الذي لاحظته أن أمك لم تكن باكية آنذاك كما تفعل أنت الآن، فقد كانت وأبوك يلوحان بأيديهما... مودعين (خرجت الكلمة الأخيرة من فمه تفيض حزنا فيضان الدمع من عينيه فأخرج المنديل من جيبيه يمسح دموع الفراق، دموع اللقاء في نهاية الكهولة).

- وآخر ما قاله أبوك عامر لنا:

- (سأواجه العدو لأنقص من ذخيرته... وهذا لفائدة ثورتنا).

رفع سالم رأسه بعد إطراق قائلا:

- وليس فيكم من قال: "تقضي الرجولة أن نمدّ جسومنا جسرا فقل لرفاقنا أن يعبروا"

ردّ عليه الضابط الأخضر:

- لم يكن الشعر يغرينا يومئذ، لقد ظهرت الطائرة في سمائنا فتموّهنا واختبأ أبوك وأمك تحت صخرة قرب المخبأ.. وإن سلمت من الأسد فلا تطمع في صيده...

- وصل العدو إلى المخبأ ودخل جنوده كالكلاب المسعورة يفتشون المخبأ، ثم قاموا بتهديمه بالمتفجرات...

سأل سالم في لهفة...:

- ثم ماذا...؟!

ردّ عليه الضابط الأخضر في هدوء:

- وكان الفراق الطويل... أخبار توالت تحمل نبأ استشهاد أبيك عامر في نهاية السفح والقبض على فاطمة والزج بها في السجن العسكري، حيث ألبسوها البذلة الزرقاء...

قاطعه سالم مردّدا:

- الثوب الأزرق... الثوب الأزرق يلبسه المساجين؟!

- نعم.

قال سالم وهو يهزّ رأسه في حسرة:

- هذا ما قاله لي معمر:

- لقد جاءت أمك غداة الاستقلال إلى القرية بلباس أزرق تحملك صبيا بين أيديها...

نظر الضابط إلى فاطمة أم سالم التي كانت تبتسم ملء الشفاه وومیض الدمع يشع من عينيها ثم قال لسالم:

- إذا كان ميلادك بالسجن وراء القضبان...

انتفض سالم قائما... متقدما نحو أمه...:

- أماه... أماه...

لم يصلها نداؤه... كانت تنظر بعيدا... بعيدا... إلى أعماق الصورة التي يبدو فيها عامر بزيّه العسكري يتكئ على سلاحه مبتسما...

لم تتمالك سعاد نفسها من البكاء وهي تسمع القصة فخرجت مسرعة إلى الغرفة المجاورة واضعة يدها أسفل جبينها...

قال سالم:

- من المؤكد أن أمي فقدت السمع والنطق في السجن العسكري تحت التعذيب... زدني يا عمي الأخضر... هل هناك أخبار أخرى؟!

- لقد قلت لك ما أعرف...

صمت الاثنان يتأملان فاطمة في جلستها قرب زوجة الضابط، ، ، مرّت لحظات تحدثت فيها لغة العيون بنظرات عديدة...

بدّد الضابط الصمت قائلا:

- نسيت أن أخبرك بأننا علمنا بعد شهور بما وقع لسكان القرية...

- .....؟!

- لقد أحرقت بيوتهم بالقنابل وقُتل وشُرّد سكانها ومن بينهم جدك الشيخ الطاهر...

صمت الضابط قليلا ثم أردف قائلا:

- كانت أول قنبلة صعقت الجامع فاستشهد سي صالح وأغلب الأطفال... على كل حال الحرب مصائب

تنتهي أحيانا بالنصر... تنفس سالم الصعداء:

- الحمد لله الذي أظهر الحقيقة التي تكمّ أفواه المتقولين...

- إني أتعجّب من بلوغك هذا السن وأنت تجهل أنك ابن شهيد ومجاهدة...؟

- الأقدار ياسيدي... لم أكن أعرف غير اسم بكوشة و...

قال الضابط في حزم:

- ليست الألقاب هي التي تكسب الناس مجدا، بل الناس هم الذين يكسبون الألقاب مجدا... والآن بعد أن عرفت كل شيء.. ما أنت فاعل؟

قال سالم في حيرة:

- ما الفائدة؟ عندما أستطيع لا أعرف، وعندما أعرف لا أستطيع.

قام الأخضر قائلا:

- هيا... يا سالم... نذهب إلى هناك لأعرفك على المواقع والمخبأ والواد... لأستعيد برفقتك الذكريات... ثم نستطيع

فعل كل شيء.

سأله سالم:

هل نذهب إلى القرية؟

- إن القرية التي ترعرع فيها أبواك بعيدة، بل هي في ولاية أخرى.

سنذهب إلى القرية التي تحاذي (واد الآخرة) والمخبأ بلا شك أنها القرية التي قدمت إليها أمك بعد خروجها من السجن وترعرعت فيها أنت وهناك أطلب من السكان القيام بعمل يجسد أسمى معاني الوفاء...

"هذا كل ما عرفه سالم عن أبيه عامر وأمه فاطمة المجاهدة".

❁ ❁ ❁ ❁

الوقت عصرا والاحتفال متواصل، الجميع ينتظرون خروج الحاج بوعلام وضيوفه للمشاركة في سباق الخيل... وبعد أن خيم الصمت ووقف البعض فجأة يريدون الفرار مردّدين:

- البقعة... البقعة...

اعتاد سكان القرية اللجوء إلى أي مخبأ يخفيهم كلّما لمحوا سيارة الدرك تطل على قريتهم زائرة... كان استقبالهم الهروب من وجهها من عهد الاحتلال... لم تطأ أقدام الدرك القرية منذ خمسة شهور يوم حملت فاطمة البكوشة إلى السجن، أفزعهم القدوم المفاجئ ودخل الرعب في أحشائهم أسرع من دخول الطعام إلى بطونهم، فعلاهم الفزع الذي اعترى الخرفان منذ ساعات...

طمأن كل واحد من الحاضرين نفسه سائلا:

- هل أذنبت؟!

- لا لم أفعل شيئا....

قام الشيخ حمزة يلوح بيده مهدئا:

- ما أصابكم يا جماعة... مالي أراكم مرتابين... لاتخافوا إنّكم في حماية الحاج...

ألا تدرون بأنه نفسه حكومة... ورجال الدرك مثل الخاتم السليماني في إصبعه.

تألمت الأرض تحت ضغط وطأة العجلات المطاطية

التي شدتها المكابح بقوة مفاجئة...

نزل أحدهم ينظر في جموع الحاضرين الذين أطرقوا واجمين كأنهم يحملون جرما عظيما... رمى قويدر نعله وجرى مسرعا داخل المنزل المحتفظ بأشجاره... أبلغهم قويدر الخبر...

خرج الحاج بوعلام يرفل بجسمه في العباءة ذات اللون الزاهي، بادره الحاضرون بالتحية الواسعة التي احتوته من كل جانب...

لم يبال بابتساماتهم الساذجة... اقترب من رجلي الدرك فاتحا ذراعيه مرحبا:

- أهلا أيها الأسود، كنت أنتظر قدومكم في هذا اليوم المشهود ثم صافحهما قائلا:

- تفضلا إلى الداخل، إن الدار داركم، إن سي الزبير وتوفيق في انتظاركم...

عادت النضارة إلى نظرات سكان القرية ووقفوا في إعجاب لجرأة الحاج بوعلام ولمكانته لدى أصحاب المعالي...!

أومأ الدركي إلى زميله بالدخول رفقة الحاج بوعلام...

كانت نظرات الحاج تفيض افتخارا وكبرياء وهو يتوسطهما في الدخول... ضرب الشيخ حمزة الأرض بعصاه قائلا:

- أرأيتم... إنّهم مثل الخاتم في إصبعه.

قال أحدهم:

- أكمل لنا الحكاية يا عمي حمزة...

صمت الشيخ حمزة يفكر قليلا ثم ابتسم قائلا:

- أين وصلنا...؟

وأردف بعد هنيهة قائلا:

- لما حضر الأكل طلب القوم من ذلك الناسك المتعبد أن يكون الأسبق في تناول قطعة اللحم تبركا به، وتناول الناسك قطعة اللحم بيده ثم وضعها بين أسنانه، ، ثم رمى بها بعيد كأنه لم يستسغ طعمها... نعم لا تتعجبوا رمى بقطعة اللحم بعيدا، وبعد أن طلب جلساؤه وأصروا على معرفة سبب فعله هذا أذعن لطلبهم وأخبرهم قائلا:

- لقد تعودت على مناقضة النفس في شهواتها،

لأنها أمارة بالسوء ترغب في الممنوع الحرام... وتهجر الطيب الحلال، وبما أنها استحسنت هذا اللحم ذوقا وطالبت المزيد منه، كأنها لم تذق أشهى منه، تأكدت بأنه سوء والأرجح أنّه حرام، وهذا ما جعلني أرمي به بعيدا...

جرى هذا الحديث على مسمع صاحب الوليمة فذهب مسرعا إلى جزار الحي يطلب تفسيرا لما ادعاه الناسك حول اللحم... فقال الجزار في خجل:

- لقد صدق الناسك فقد وجدت الكبش مختنقا بالحبل الذي يربطه إلى جذع الشجرة فذبحته ميتا وبعته لك لأسترجع مالي فيه...

سأل سليمان الشيخ حمزة:

- وماذا فعل صاحب الوليمة عندما علم بقصة الكبش؟

أجاب الشيخ حمزة قائلا:

- لم يفعل شيئا بل....

توقف الشيخ حمزة عن الكلام وتوجّه بنظراته كالجميع إلى السيارة الأنيقة التي أقبلت نحوهم

وتوقفت قرب سيارة الدرك..

نزل الضابط الأخضر من سيارته وحي الجميع بإشارة من يده...

وقبل أن يستمع الرد وصل إلى مسامعهم عويل مفزع، فنظر الكل إلى مصدره، حيث بيت الحاج بوعلام الذي خرج يتوسط الدركين منحني الرأس مقيد اليدين بسلسلة تجمع يده بيد ابنه بوزيد يتبعهما شيخ البلدية الزبير وحارس الغابة توفيق في خطى وئيدة نحو سيارة الدرك التي حشرتهم داخلها، ، ، لم يصدق الحاضرون هذا المشهد، ومكث كل في مكانه بينما تقدم الضابط الأخضر من رَجُلَيْ الدرك فاستقبلاه بتحية عسكرية، قال الشيخ حمزة في صوت خافت:

- سبحان الله مغير الأحوال... الحاج في دخوله بطلا وفي خروجه أسيرا.

بدا على الضابط علامات الاستفسار، ، ، فتقدم منه أحدهم قائلا:

- هل تريد حضرة الرائد معرفة الأسباب؟

أجاب الضابط الأخضر في حزم:

- نعم إن لم يؤثر هذا في مهمتكم..

قال الدركي موضحا:

- جريمة قتل قديمة واغتصاب فتاة وقطع الأشجار دون رخصة واستعمال آلة حكومية لأغراض خاصة... ألقى الضابط الأخضر نظرة تأملية على المتهمين، ثم حي رجلي الدرك الذين ردّا التحية وركبا سيارتهما التي أقلعت دون وداع.... هرع قويدر خلفها يريد اللحاق بها، لكن قدميه عجزتا عن ذلك فاكتفى بتشييعها بنظرات يائسة...

سرح سكان القرية بتفكيرهم في الأفق البعيد باهتين بينما توجه عثمان إلى السيارة الأنيقة وسلّم على سالم الذي كان بداخلها جالسا وتحدثا في أشياء كثيرة...

توسط الضابط الأخضر المتجمعين من سكان القرية وخاطبهم بصوت مسموع:

- ياسكان القرية... إنكم مدعوون للحضور جميعا يوم الجمعة المقبل في هذا المكان.

تطلع الحاضرون إلى معرفة السبب... فأردف الضابط قائلا:

- ستصلكم خلال اليومين المقبلين دعوة رسمية من الولاية وعندئذ تعرفون السبب...

ركب الضابط سيارته مغادرا القرية، التف الحاضرون حول عثمان سائلين:

- ماذا قال لك سالم؟ لماذا نحضر يوم الجمعة؟!

ردّ عليهم عثمان وهو ينصرف في طريقه إلى بيته:

- أشياء كثيرة ستعرفها قريتنا هذا الأسبوع...

تمدّد قويدر على الأرض باكيا فتجمع الحاضرون حوله وسأله سليمان:

- ماذا أصابك أنت أيضا؟! قم... قم يا قويدر..

قال الشيخ حمزة:

- إنّه يوم أسود... انقلبت فيه الأوضاع وقبض على الأحرار في النهار...

قاطعه الجيلالي:

- إنّه الفأل النحس، ذلك الذئب الذي ظهر هذا الصباح...

وجاءهم صوت بلقاسم بوعكاز الذي كان سائرا

في اتجاه منزله رفقة معمر:

- إن كان الذئب الصغير قد فلت من أيدي الرعاة فإن الذئب الأكبر قد قبض عليه اليوم... اليوم فقط...

وأضاف رفيقه معمر:

- إن العدالة سور لا يغرقه ماء ولا تأكله نار.

تدخل الشيخ حمزة قائلا في كلام ممزوج بالسعال:

- "إن الله يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء"...

وأردف بوعكاز:

- إن الله يمهل ولا يهمل... ثم تقدّم نحوهم ماسكا بذقنه المشعر:

- وحق هذه اللحية التي ترعرعت في غياب صفية زينة البنات وحق من رفع السماء إن حاجكم سيبيت الليلة في السجن، سيمكث فيه طول حياته. (رافعا بوعكاز يده إلى السماء) يا الله..

تدخل الشيخ يحيى مهدئا:

- اتقوا الله يا أهل الريف... إن الجماعة في يد الحكومة وهي أدرى منا بقضاياهم، إن أهل الأرض

يعرفون أسرارها.

تفرق الحاضرون من المكان زمرا ووحدانا، ، ، ولم يبق إلا بعض الأفراد حول قويدر الذي بدأ يصحو من غفوته...

مرّ اليوم الثاني والقرية تعيش جوا لم تألفه من قبل، السكان يتجمعون هنا وهناك يستفسرون أويفسّرون... الأحداث المتتالية حتى تجلي الغموض عن بعض الألغاز المبهمة شيئا فشيئا...

وجاء اليوم الثالث ليشهد السكان في ضحاه بعض السيارات تزور القرية على غير عاداتها...

وقفت إحداهما أمام الدكان نزلت سائقتها... كانت سيدة متوسطة العمر ترتدي ثوبا ناصع البياض مخططا برسوم كالحة السواد... استطلعت المكان والحاضرين بعينين فاحصتين لفتت بهما الانتباه... تقدّمت نحو الرجال الجالسين على الأحجار قرب الدّكان وسألتهم:

- من يدلّني على دار بوزيد؟

ثم أردفت في اضطراب:

- هل أبوه بوعلام هنا؟

صمت الحاضرون متردّدين، وأقبل الأطفال نحوها فسألتهم المرأة ويدها تفتح الحقيبة الصغيرة:

- هل هو هنا يا أطفال؟

قال الأطفال جميعا وعيونهم تقتحم الحقيبة:

- الحاج في السجن... الحاج في السجن.

توقفت عن فتح الحقيبة وسألتهم في لهجة ساخرة غير مصدقة:

- ماذا تقولون...؟!

أقسم أحد الأطفال:

- إننا صادقون وحق النّسخة(القرآن)، لقد كبّله رجال الدرك وأخذوه هو وابنه و...

سألت في انفعال:

- لماذا... هل ظهرت الحقيقة؟!

وجّهت كلامها نحو الرجال في نغمة حزينة هادئة:

- نسيت أن أخبركم... أنا جوهرة زوجة بوعلام...

الحاج كما تدعونه... الحاج الوهمي، أقسم بحياتي إنه لم يضع قدميه في مكة، بل كنا نذهب معا في ميقات الحج إلى فرنسا، وكثيرا ما يردّد على الطائرة (سبّح يغتروا، ، سبح يغتروا).

أطلقت قهقهة عالية سرعان ما كتمتها لتحوّل حديثها إلى مقاطع تفيض حزنا وندما والجماعة منبهرون اندهاشا لاعترافاتها الخطيرة وهي تقول:

- لقد قضى حاجكم على زوجي المسكين ليتزوجني عندما كانت مفاتني تغريه، ، وهاهو يغادرني إلى أخرى، ، لقد بعثت لي المحكمة دعواه بالطلاق وأنا في الخارج... ثم أخرجت ورقة زرقاء وهي تقول:

- الاستدعاء... يريد تطليقي... ناسيا من أنا... يا سلام، ثم أردفت في تهكم:

- أكيد أنكم لازلتم رعاة عنده... عادة أجدادكم... هكذا كان يقول لي...

حاول معمر أن يتكلّم قائلا:

- نحن...

قاطعته في غضب:

- أنتم لا شيء... لا شيء... كما قال يجمعكم طبل وتفرقكم عصا... يجمعكم الرغيف تحت قدميه... تحت قدميه تداس كرامتكم ولا تتحركون...

قاطعها معمر مرّة ثانية:

- حاشا... المرجة ليست كلها حشيشا.

- مسكين أنت... هكذا كان يفكر زوجي أب موحوش... سامحني.. سامحني... يا رب...

وأجهشت جوهرة بالبكاء عائدة إلى سيارتها التي انطلقت بها مغادرة القرية...

بقي الحاضرون بين مصدق ومكذب... أذهلهم التقرير الذي أعلنته أقرب الناس من الحاج بوعلام...

وقال الجيلالي في حسرة:

- هذه هي الحياة... سمّن كلبك يأكلك...

قاطعه عمران:

- سقط القناع... لقد انكشفت أوراقهم..

(ثم أردف قائلا في سرعة):

- هل تدرون بأن الجرار الذي كان يحرث به بوزيد أثناء الحادث هو ملك للدولة ومن المفروض أن يخصص لمزرعة فلاحية في هذه القرية؟!

قال سليمان متسائلا:

- إذا كان هذا سبب القبض على شيخ البلدية والحاج وبوزيد، فما ذنب توفيق؟!

أجاب الشيخ يحيى:

- جزاء ما فعله في حمار معمر الذي افترسته الوحوش والمواد الغذائية على ظهره..

قال معمر:

- الحمد الله... لقد بان الصبح لذي عينين، هل نسيتم الأشجار الفتية التي أعدمها الحاج بمساعدة توفيق؟!

قام الشيخ دحمان متثاقلا وهو يشير إلى وراء الدكان قائلا في صوت خافت:

- ها قد أقبل بوعكاز... يجب أن نغير الحديث...

ثم أردف قائلا:

- الصمت يكسب أهله المحبة... متى نبدأ العملية؟

۞ ۞ ۞ ۞

عادت والعود أحمد، عادت الجمعة مرّة أخرى تحمل معها مستقبلي على هودج الماضي الذي أثقل كاهلي وأضنى راحتي... الجمعة التي تعيد إلي ملابسي التي فقدتها قبل الولادة، ، ، سيعود لأمي تاجها الذهبي واسمها الجميل الذي ضاع عشرين سنة، اليوم يعود للشهيد المجهول شرفه المظلوم...

كان سالم يحدث نفسه في سرور وسيارة (الهوندا) تتابع الطريق الجبلي الوعر تجاه قرية يما حليمة.... أخرج الضابط ذراعه من نافذة السيارة قائلا:

- انظر... يا سالم...

انتبه سالم إلى كلام الضابط وقال معتذرا:

- عفوا... ماذا قلت ياعم؟

- ذلك في المنخفض (واد الآخرة)...

تطلّع سالم برأسه على الواد الطويل، الذي كان يلتوي بمائه بين الجبال ثم نظر إلى أمّه التي كانت تجلس في الكرسي الخلفي تهزّ رأسها باسمة...

- إن أسماء هذه الوهاد وتلك القمم الشماء مرسومة في الذاكرة بحروف من نار...

سأله سالم:

- كيف تراها الآن يا عمي الأخضر؟

- لولا الفراق ما كان اللقاء... أنظر.. أنظر إلى تلك الصخرة الرمادية في ذلك التل... آه... كم وكم تناولت الأكل مع أبيك في حضنها... أتذكّر ليلة ذكرى المولد النبوي عندما نفد زادنا... فانطلقنا منها إلى نبات الدوم على حافة الواد نلتهم جذورها...

ذلك الجبل المتعالي في كبرياء وشموخ خرّ لأبيك صاغرا واحتفلنا على ذروته بقدومه... سميناه "اخفق يا علم"...

تدخّل سالم مقاطعا:

- نحن نسميها قمة (بني مسرا) فما سبب تسميتها (اخفق ياعلم)؟!

- إنّه الاسم السري لها أثناء الثورة، حيث كان أبوك يوزع الذخيرة مساء كل خميس على الكتائب.

- لقد فهمت... إن هذا الاسم الثوري يذكرني باسم ثوري مثله.

سأل الضابط ونظره مسدّد إلى الطريق:

- ماهو؟

- "سمسم" اسم شاطئ بفلسطين اتخذه الفدائيون مكانا لجمع الذخيرة عند "أبوحاتم النجار" وكانت كلمة السرّ "افتح يا سمسم"...

توقف سالم عن حديثه ليهتف قائلا:

- ها قد وصلنا قريتنا...

صمت الاثنان بينما كانت فاطمة أم سالم ترسل نظرات الدهشة وهي لا ترى مكان كوخها إلاّ الأطلال المحروقة...

حطّم الضابط جدار الصمت:

- تذكرت... تذكرت...

سألته ابنته سعاد التي كانت تجلس خلفه قرب فاطمة:

- ماذا تذكرت يا أبي؟

- ... منذ أن جئنا إلى القرية في الأسبوع الماضي وأنا أحاول تذكر الشيء الذي جعل القرية تبدو لي ناقصة... فقدت الشيء الذي ألفته أيام الثورة...

استعجله سالم ماذا... ماذا يا عم؟!

- الشجرة... شجرة الصفصاف التي كانت تظلل العين...

- أين هي؟

أطلق سالم زفرات عديدة ثم قال في اقتضاب:

- ذكرتني بالطعنة وكنت ناسيا... لقد... لقد..

قالت سعاد لسالم:

- مالك يا سالم تبدو حزينا... متردّدا...

قال الضابط:

- قل يا سالم... ماذا وقع لها... إنها مهمّة الآن... ألم تشاهد على جذعها رسم القلب الكبير الذي تتوسطه

عبارة "تحيا الجزائر"... لقد نحت ذلك عامر... أبو...

- أبي.... حتى أنت يا أبي.... (وأطلق سالم زفرة طويلة).

ثم أجاب قائلا:

- لقد قطعها الحاج بوعلام... أنسيت ما حدث له؟!

- آه.. آه.. تذكرت... تذكرت... على الباغي تدور الدوائر.

قبل الزوال من ذلك اليوم أوشك سكان القرية على الانتهاء من جمع رفاة الشهداء في ساحة القرية، كانوا ينتقلون في حماس شديد وصدى كلمات الإمام يرن في آذانهم:

- حق الميت على الحي...؟ الأشلاء الزكية...

حماة الدين... الأمر الرسمي يرخص بذلك... انطلقوا... حافظوا... الله أكبر.....

- .....

أوقف الضابط الأخضر سيارته في بداية الساحة، الحركة دائبة في تصفيف التوابيت وتغطيتها بالأعلام الوطنية...

همس سليمان في أذن الشيخ يحيى مستغربا:

- أنظر.. أنظر العجب... بكوشة وابنها ينزلان من سيارة الضابط... ترافقهما شابة تضيء كالبدر...

قال الشيخ يحيى في خشوع:

- رحّم... رحّم على الشهداء ياسليمان ولا تهتم بالناس...

اقترب منهما سالم هاتفا:

- عمي يحيى....

احتضنه الشيخ يحيى في حنان ثم سأله؟

- كيف حالكما؟

- بخير... وكيف حال محمود؟

- لا بأس إنه هناك...

بحث سالم في لمح البصر عن محمود بين الناس... وجرى مسرعا نحوه كان محمود منشغلا بكتابة لافتة كبيرة... فهفا للقاء سالم وعانقه في حرارة، وبفرحة اللقاء الغامرة والردّ على المسلّمين، قرأ سالم كلمات اللافتة في نشوة:

- "المجد والخلود لشهدائنا الأبرار"

سلّم الضابط على الحاضرين واقترب من الإمام بينما وقفت سعاد قرب السيارة تتأمل الخنادق المحفورة المتراصفة في نهاية الساحة...

اقتربت فاطمة أم سالم من التوابيت الممتدة تتأمل العظام الرميمة بترابها على حصير الدوم...

نظرت حولها يمينا وشمالا ثم اتجهت نحو ابنها الذي كان مع محمود والضابط يسمعون إلى الشيخ دحمان وهو يقول في إعجاب شديد:

- لم أشهد في حياتي إقبال الناس على العمل مثل هذا اليوم (اقترب قويدر منهم يتأمّل الرتبة العسكرية التي كانت تتلألأ على كتف الضابط كلمعان النجوم في الليل) واصل الإمام حديثه:

- لقد بحثنا في كل ناحية وحفرنا كل مخبأ فجمعنا رفاة ثلاثة وثلاثين شهيدا في الدفعة الأولى.. وتعرّف الإخوان على أغلبهم..

قاطعه سالم:

- هل وجدتم أبي...؟!

صمت الإمام مطرقا برأسه.

كرّر سالم سؤاله في إلحاح:

- أبي... هل وجدتموه...؟!

فضّل الإمام الصمت راضيا بجواب قويدر الذي قال على الفور:

- وهل كان لأمك زوج حتى يكون لك اليوم أب؟!

لم يحضر سالم عتاده لمواجهة هذه الطعنة المتأخرة التي أحس ببرودتها أمام الضابط وحول غضبه إلى ابتسامة وقال ويده تهوي على وجنة قويدر صافعا إياه:

- السفيه يقرأ ما فيه، يا أتفه...

وقبل أن يكمل قوله جذبته أمه من ذراعه بشدة وهي تحاول لفظ حروف اسمه: س... س

- .....

سارت أمه في الاتجاه الغربي للقرية قاصدة سفح الجبل، حاول سالم الوقوف في طريقها قائلا مستعينا بحركاته:

- أمي... أمي... إلى أين؟ ارجعي نتعرف على أبي قبل دفنه...

حدّث سالم نفسه:

- "سيكون اليوم الأخير في حياتي إن لم تظهر الحقيقة التي تنفي ما يزعم سكان القرية..."

رجع سالم بمفرده إلى التوابيت، ، فتح الأول في عصبية ثم أقدم على التابوت الثاني بيدين مرتجفتين يبحث عن كل شيء في اللاشيء... فأوقفه الضابط سائلا:

- ماذا تفعل يا سالم؟!

نظر إليه سالم متطلعا:

- دعوني... أرجوكم...

- عما تبحث؟! يكفي...

- أبحث عن شرفي... عن رفاة أبي...

قاطعه الضابط الأخضر والجميع يلتفون حولهما:

- إن شرفك ذاهب على السفح... إلى الغابة... أنظر إلى أمك التي تحمل شرفك ألا تخشى أن تفترسها الوحوش... رفع سالم رأسه ينظر إلى الضابط، كأنه يراه لأوّل مرّة... أحسّ بأن وراء كلماته أسرار لا يستطيع البحر إخفاءها... فقام مسرعا يتبع أمّه في طريقها...

طلب الأخضر بفراسته من بعض الحاضرين مرافقته إلى المرتفع بمعاولهم... فاستوقفه الإمام دحمان:

- لقد بحثنا في كل مكان ياسيدي...

- صدقت... لكن يجب الذهاب... ولو لأستعيد الذكريات...

- هيا يا جماعة...

سار الأخضر يتقدم عشرة رجال يتبعون أثر فاطمة وابنها سالم...

أراد الأخضر رفع الكلفة بينه وبين رفقائه فقال مستفسرا:

- شجرة التين الموجودة في الواد... ثمارها الشتوية مالحة...

تعجّب رفقاؤه من علمه بهذا السّر الذي لا يعرفه سوى السكان، فقال أحدهم:

- هل تعرفها؟!

وأردف الثاني:

- أين تسكن؟ ومن أين أنت؟

أجاب الأخضر مبتسما:

- ليس المهم أن تعرفوا من أنا وأين أسكن... الأهم من ذلك أن تعرفوا أنفسكم، حياتكم وقال في حسرة:

- إن الحياة رحلة شاقة تنطلق من سجن صغير لتؤدي آخر العمر إلى سجن صغير أيضا وما بينهما سجن كبير جدا هو الدنيا.

قال ثالثهم:

- هل حدثك سالم عنها... كيف تعرفها؟!

- وأعرف (واد الآخرة) والسباغنية وعين بني علي وبني صالح، وتاقيطونت و..و...

- .....

وصلت فاطمة وابنها إلى الحجارة المتجمعة، إلى المكان الذي تحدّث فيه بوزيد ورفيقه، شمّرت على ساعديها وبدأت تقذف الحجارة بعيدا عن مكانها بينما وقف سالم صامتا في حيرة من عمل أمه... كانت تجمع بقايا الشمع المتواجد بين الأحجار وتضعه في منديلها، انهمكت في عملها ولسان حالها يقول:

"سترى النور أو يراك لا يهم، ستعرف الفيافي والجبال أن دمك لن يذهب هدرا، ، ، يا حبيبا صامتا، ، ، يا غريبا بين أهله، ، ، لا تيأس ستجتمع برفقائك في خندق واحد، ، ، في جبهة واحدة إنهم في انتظارك، ، ، في انتظارك... لقد تحقّق الحلم واستقل وطنك وخلفك في الحياة ابن سيراك وتراه... ونلتقي اليوم يا زوجي العزيز بحضور ابننا، ، بحضور الجميع وتلتقي ملائكة الأرض بملائكة السماء من جديد...

أدرك سالم ما تروم أمه من أبعاد الحجارة عن كومة التراب فجثا على ركبتيه يتأمل التراب الذي أخفى ماضيه، الذي طوى رمز شرفه، ، ،

رفع بيديه حفنة من التراب تأملها بعينين مغرورقتين بالدموع، قبل الثرى بشفتين مرتعشتين، ثم مرّره على وجهه يمسح الدموع التي امتزجت بالتراب المنساب بين أصابعه، ، ، نظر في عطف وعتاب إلى أمه التي كانت على وشك الانتهاء من إبعاد بقية الحصى عن قبر أبيه، ،

وخاطبها في صمت:

- لماذا يا أماه... لماذا تخفين عني الحقيقة؟! تخفين عني السلاح وطالما استسلمت للأعداء؟!

سمع خلفه حركة أرجل سائرة تقترب منه فالتفت ليجد الضابط الأخضر رفقة الرجال... سأل الجيلالي في استغراب:

- ماذا يفعل سالم وأمه هنا؟!

أجابه الأخضر وقد تأكد من الأمر:

- يبحثان عما تجهله أنت وأبناء قريتك، عما لا تساويه أموال الحاج وكسرى.

قال سالم:

- إنها الحقيقة التي أضلّكم الحاج عنها طويلا...

أردف الجيلالي قائلا:

- في هذا المكان ضربت بكوشة بالحجارة بوزيد...

قاطعه الأخضر:

- اسمها فاطمة بنت الطاهر... خرجت مدافعة عن وطنها هيّ وزوجها عامر الذي ينام في هذا المكان الطاهر... شهيد.

أجفل الخبر الحاضرين من سكان القرية الذين ردّدوا في صوت خافت متعجبين:

- شهيد.... أب سالم شهيد...

لم يصدق سليمان الخبر وظن أن ما يرى ويسمع لعبة غير محكمة قصد إخراج سالم وأمه من دائرة الشكوك... وقال في كلمات متعثرة:

- أصحيح هو في هذا المكان؟! وكيف يمكن معرفته؟!

أجابه محمود وعقله لا يصدق:

- هو يعرفنا... أليس الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون؟!

أبعد الأخضر سالم وأمه عن المكان وأمر الحاضرين بالحفر...

حاولت فاطمة الامتناع عن الابتعاد، لكن إصرار الأخضر أرغمها على الابتعاد وابنها بضع أمتار...

قال "الأخضر" للرجال موضّحا:

- لا تقربوا المعاول إلى الوسط... ولم تمرّ لحظات حتى هتف الجماعة مكبرين:

- الله أكبر... الله أكبر... شهيد... شهيد.

- الله أكبر... لا حول ولا قوة إلاّ بالله... انتظر...

ظهرت قطع رثة من اللباس فرمى سليمان المعول من يده

وأخذ ينبش التراب بأصابعه وساعده في ذلك الآخرون حتى بدت معالم الدفين...

أخرج الجماعة الهيكل المحطم من بين التراب بأطراف مرتعشة وقلوب خافقة، تحوّل الأخضر عن المكان لا يطيق صبرا عن الدموع ولسانه يتلو الفاتحة، بينما تقدّمت فاطمة تتأمل الهيكل العظمي، ، ، وانفجرت شفتاها عن ابتسامة، ثم تهاوت بالقرب منه مغمى عليها، ، ،

نادى سالم:

- أمي، ، أمي، ، انظري هاهو أبي.. أبي.. أبي هذه أمي.. أنا ابنك.. أبي... أمي...أ، ، ،

خنقته العبرات وأحس بالدوران، فقد توازنه فخر على الأرض يلتوي مضطربا بين جسم أمه المرتعش وهيكل أبيه الساكن...

تعالت الأصوات:

- الماء... التابوت... الماء... أسرعوا...

سارع اثنان إلى القرية لإحضار التابوت والماء... كان العرق يتصبّب من جبينه والعبرات جارية على خديه...:

- رحمك الله يا رفيقي... يا أنبل الأصدقاء... لقد فزت بنعيم الخلود، ثم قال الأخضر للحاضرين:

- لقد افترقنا في صباح ينيره البارود لنلتقي تحت شمس الحرية ثم لنفترق من جديد...

وحوّل بصره إلى الشهيد قائلا في صوت متهدج:

- سنلتقي يا أخي.. سنلتقي اللقاء الأروع.. اللقاء الدائم..

كانت دموع الكبرياء تترقرق استهانة بالحياة... أطلق لها الأخضر العنان غير مبال بمن حوله... دموع قهرت الصبر والتجلد العسكري تصدّع لها الزيُّ العسكري وأسكنت في أعماق الحاضرين الخشوع والحزن، بل الندم المرّ على ماقالوه، ، ، على مافعلوه، ، ،

لحظات صمت رهيبة مرّت على الحاضرين، ، ، قطرات الماء تتصبّب على بكوشة وابنها الذين استجابا لها، ففتحا عيونهما في استيقاظة جديدة كأنها ساعة الميلاد...

كان الحاضرون من سكان القرية يرون حالتهما يقرؤون الملامح، يستسمحون فاطمة اليوم عن بكوشة الأمس، ، ، يستغفرون الله عن قذف المحصنات وراحوا

في تفكير طويل... امتدّ بعيدا حاملا الذكريات، بكوشة... الثوب الأزرق... الصبي... الكوخ... المشية المتعثرة.... بوزيد... وو.....

قطع حبل تفكيرهم الجيلالي الذي أخرج من بين التراب ساعة جيب مملوءة بالطين وفي يده الأخرى بعض الخراطيش المتصدئة.... وقطعا من النقود فتتها الصدأ...

۞ ۞ ۞ ۞

تجمع سكان القرية قبل الأصيل عن بكرة أبيهم متعجبين في أسف، وأعادوا دفن رفاة الشهداء في ساحة القرية بحضور سالم وأمه فاطمة والضابط الأخضر وابنته سعاد وعدد من سكان المدينة... وتوجّه الكل منشدين إلى سفح الجبل، ، إلى المكان الذي سقط فيه عامر شهيدا فبنوا بتلك الحجارة نصبا تذكاريا وركزوا عليها العلم الوطني خفّاقا في العلا وامتزج النشيد بالفاتحة والابتسامة بالدموع...

عانق السكان بعضهم بعضا، استعادوا فرحة الأعياد وبهجتها، يتسامحون ويطلبون الصفح من المولى... من الشهيد

العظيم... من فاطمة رمز الوفاء والفضيلة... من سالم... سالم... وعرفوا جيدا سر إصرارها على البقاء في القرية وجوارها لهم رغم جورهم عليها...

سُرّ سالم لتعاطف سكان قريته معه، كادت تتقطع أنفاسه عندما أقبلوا عليه يقبّلونه ويحدّثونه في استحياء...

ووقف بلقاسم بوعكاز مطرقا برأسه على الأرض بعد أن صافح "سالم" وقد امتقع لونه وارتعشت شفتاه ثم انصرف بعيدا...

تقدم ممثل البلدية مناديا بصوت مسموع:

- أيها الفلاحون، يا سكان قرية الشهداء... لقد قرّرت الحكومة منحكم الأرض والوسائل، فمن يريد ذلك يسجل اسمه في الدفتر الخاص بالبلدية بكل حرية وديمقراطية...

قاطعه عثمان منفعلا:

- أي ديمقراطية تتحدث عنها ونحن نشاهد التزوير والمحسوبية يترعرعان في البلدية؟!

ردّ عليه ممثل الحزب قائلا في هدوء:

- إن الديمقراطية شورى يحرسها وعي المواطن، ،

ومن شاهد منكم منكرا فليغيره.

تقدم الشيخ يحيى سائلا:

- ما معنى منحكم الأرض والحرية والديمقراطية؟

- هل تريدون العودة بنا إلى عهد الثورة الزراعية؟!

ردّ عليه الضابط الأخضر:

- تعود الأرض لكم تتصرفون فيها بحرية، كل ما تزرعونه تحصدونه وتنتفعون به... جماعيا أوفرديا، كما تشاؤون...

التفت بعضهم إلى بعض يقرأ كل واحد علامة الصدق والاطمئنان في عيني الآخر وتعانق الجميع مرّة ثانية وساروا في اتجاه القرية يردّدون:

- مسكنا السلاح... مسكنا السلاح...

❁ ❁ ❁ ❁

ما أسمى الشرف، أول مرّة أدخل القرية ومعي أهلي... أستطيع التحديق في كل وجه والتّمعن في كل عين... أتحدّى النظرات الشائكة برأس مرفوع، أتحدّى الغربة التي أضنت

وجودي.. سيعلم الجميع كل من في الوجود أن أبي موجود.. لست لقيطا.. ما أعذب الشرف! وما أمرّ الإهانة! إنّها الكرامة التي كانت مدفونة في سفح الجبل، وحاول الكل إلباسها ثوب العار المتوحل... آه... ما أحلى لقاء الأعزاء والأحباب...

وتنهد سالم في حسرة عميقة تدحرجت إثرها دمعتان لامعتان أخفق لهما فؤاد صديقه محمود الذي سأله:

- لمن هذه الدموع يا سالم؟!

- الأقدار يا محمود...

- علمتنا الأيام أن تكون للأفراح دموع، هل أصبت؟

- آه... لو حضرت صفية هذا اليوم... سأكون أسعد مخلوق في المعمورة (وبعد هنيهة هزّ رأسه في إيجاب متذكرا نجواها في آخر لقاء بها تحت الصفصافة).

(خائفة... إني خائفة... ويسألها في استغراب: خائفة من أي شيء؟ فتجيبه صفية: خائفة من الذكريات... أخاف أن تبتلي الذكريات بحمى الفراق... أخشى أن تحترق الذكريات).

قال له محمود مخففا:

- إنها حكمة الله يا سالم... ومن الأحسن أن نطوي صفحة الماضي... نحن في العشرين من أوت ولم تبق لحلول السنة الدراسية الجديدة إلا أياما معدودة فلننظر إلى الحياة برؤية جديدة...

نظر سالم نحو محمود في حيرة صامتة... فقال محمود:

- عليك بالبحث عن معهد لمتابعة دروسك ولو عن طريق المراسلة على الأقل.

لحق الضابط الأخضر بهما فوضع يده على كتف سالم سائلا في ابتسام:

- وهل نسيت الخدمة الوطنية...؟!

وقف سالم قائلا في حزم:

- الآن بعد أن ظهرت الحقيقة... سأتجنّد في الخدمة الوطنية عن طواعية...

نطق محمود في ترانيم غنائية:

- الشباب يغرس الأشجار ويحمي الديار، ، ، الشباب على باب السمراء يشق الهقار...

قاطعه سالم مواصلا حديثه:

- سأقوم بواجبي رغم كل شيء... يجب أن أستمر في درب أبي من أجل وطني...

وأردف محمود قائلا:

- ولك الحق في الإعفاء، فقد دفع أبوك ثمن الواجب غاليا قبل ميلادك، أليس كذلك يا حضرة الضابط؟

- نعم يا صغيري، لقد تمّ إعفاء كل ابن شهيد... وفاء لأرواح الشهداء بالإضافة إلى السماح لهم بمواصلة التعليم في الجامعة (دون عقبة)...

صافح سالم الأخضر في غمرة من الفرح، ثم التفت صوب أمه التي كانت قادمة في آخر المشاة رفقة سعاد..

وفي انتظارهما سأل الضابط:

- في أي فرع تتخصص بالجامعة ياسالم؟

فكر سالم قليلا ثم أجاب:

- أختص في علم جراحة الحنجرة...

وتدخلت سعاد التي كانت قد وصلت إلى المكان مع

فاطمة قائلة في ابتسام:

- وأنا يا سالم أختص في جراحة الأذن...

ضحك الأخضر وقال لمحمود:

- وأنت على ما يبدو ستكون في المستقبل علاّمة في التاريخ... (ثم أردف في نبرة جادة):

- إن تاريخ الأمم هو لباسها الذي تظهر به، وما أخشى هو أن يلطّخ لباس أمتي بالوحل، أوما رأيك يا محـ... قاطعه قائلا في ابتسام مقصود:

- نعم، ولكن الأرجح أني أصير شيخ كتاب أقرأ الفاتحة للعرسان...

ابتسم الجميع في رضا وأطرق سالم وسعاد صامتين في خجل ثم أرسل الجميع بصرهم بإشارة من الأخضر نحو النصب الذي أخذ يتباعد شيئا فشيئا.. بدأ يغيب وراء الهضاب ولم يعد يظهر من المكان سوى العلم الوطني في العلا يحرس الجميع في صدق ووفاء...

..... النهاية .....